رواية

مليكة مقدّم

المتمرّدة

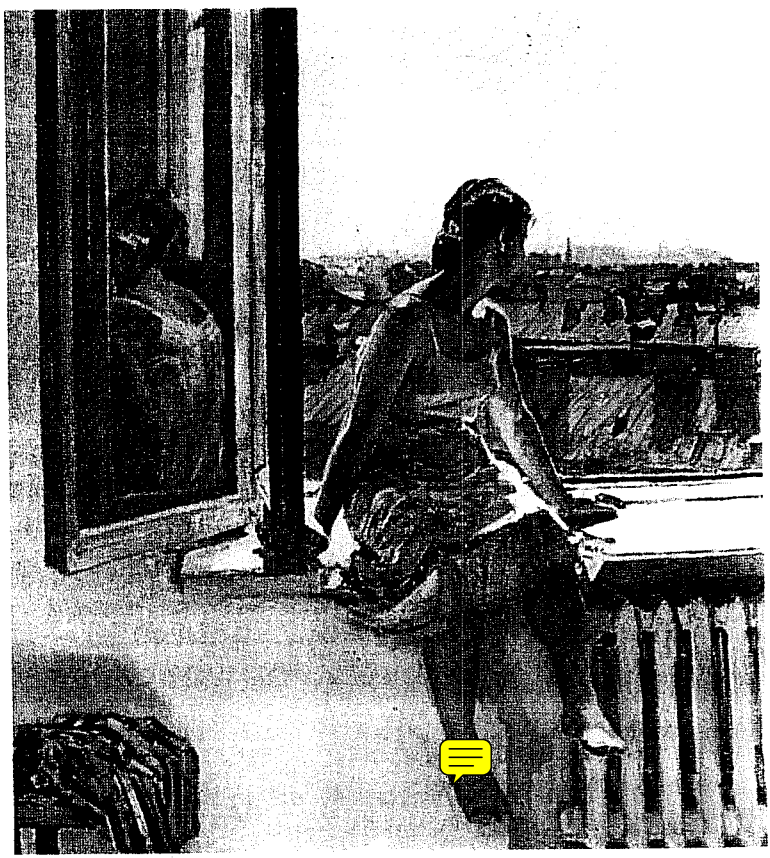

تم تحميل هذا الكتاب من
سور الأزبكية
www.ithar.com

المركز الثقافي العربي

مليكة مقدّم

المُتَمرّدة

إهـداء

إلى أبي أهدي هذا الكتاب الذي لن يقرأه.
وإلى آن براغونس.

السرير الواقفُ

هُنَا

لقد غَادَرَ هذا الصباح. أنا وحيدةٌ في السرير. وحيدةٌ هذا المساء في رائحتنا. بالرغم من أن الشَّراشِف تمّ تبديلُهَا. ولكنّ الرائحة ما زالت، هنا، في نسيج القماش. في ذاكرة السرير. في سبع عشرة سنة من جَسَدَيْنَا، من أنفاسِنَا المُتَشَابِكة. من عُهُودِ الوفاء، من أحلام مُتَشَابِكة. أَرَقِي الذي كَبَحَتْهُ استراحَتُهُ العميقةُ. شُكُوكي التي تقابلها قناعاته الراسخة. في التحامِ جَسَدَيْنَا أستطيعُ أنْ أقرَأَ طويلاً. إلى أن يُقْبِلَ النَّوْمُ ويَسْقُطَ الكِتَاب. التحام جسدَيْنَا مع الكلمات.

لن ينَامَ معي في هذا السرير. أنا مازلتُ تحت وَقْعِ تخدير عُنُف هذا اليقين. كما لو أنّي في حالة مَنْ تَعَرَّضَ لِبَتْرٍ مَا، ساعة استيقاظه من العملية. حين يكون الألَمُ ما يزال غائباً. سيأتي الألَمُ حين سَيَتَجَسَّدُ الغيابُ. بِكَامِلِ الوعي بالبتر.

أَدورُ وأستديرُ في السرير. ومن العبث أن أقول لنفسي إنّ كلّ هذا لا يوجَدُ إلاّ في رأسي، فالأنفاسُ تنبعُ منَ الشراشف، وتكتَسِحُ تنفُّسي، في أدنى حركاتي. لا أنطفِئُ. لا أقرأُ الكتابَ المفتوحَ. أركّز

نَظَري، بِبَلاهة، على المكانِ المهجورِ. أُنْصِتُ إلى صمت المنزل في جَلَبَة الطَرَمُنطان[1].

لَقَد صَنَعَ هذا السرير بِيَدَيْهِ وكذلك صفائح الأرض الخشبية. في أعلى السَّرير دعامة واسعة تُحِيط بِعَوارِض رأسِ السرير، وهو المكان المخصّص للكتب والمجلات.

مُنكمشة على جانبي، يجيؤني الانطباع، فجأةً، بأنني أُنْشِب مَخَالِبِي في طوْفِ أسقطه إعصارٍ. ريح «الطرمنطان» قويّةٌ هذا المساء، والكحول، والمُهَدِّئات، ومأساة البلد... هَذا الصمتُ الهائلُ في أعماقي. العَنَاصِرُ والبَشَرُ الهائجون من حولي. كلّ هذا. نعم.

أتخلّصُ من الرّائحة في السرير، أصفق الباب، أجتاز المنزل نحو الجناح المُقابِل، القسم القديم. دَرجٌ لولبيّ يقود إلى غرفة الضيوف. توقفتُ عند هذا السرير، الآخَر. لا. لا أستطيع أن أنام هنا البتّة. أعرضتُ عن المكان، وأنا أَنْزِل الخطواتِ بِسرعة، دون أن أتوَقَّفَ عند أسباب هذا الرفض. لم أكن أمتلك لا القوة ولا الرَّغبة.

نصفيّة[2] كبيرة فوق الصّالون أستخدمها كمكتب. فَهُنَا أكْتُبُ. هنا بدأتُ الكتابة. الجزائر. بطبيعة الحال. الجزائر، بالنسبة لي، هي صحراء قبل كلّ شيء. كتبتُ عن البلد بعد سنوات من القطيعة. في مكان الكِتَابَة المُعَلَّق.

سريرٌ إمبراطوريّ لِشَخصٍ واحد يحتلّ مكاناً بالقُرْب من أنبوب

(1) الطرمنطان: ريح شمالية تهب من وراء جبال الألب والبيرينيه.
(2) نصفية: طابق وسيط قليل الارتفاع بين طابقين.

المِدْفأة. أَتَكَوَّرُ فيه. الرأس فارغٌ، وأحسّ بالضَّجَر، وأُصْغِي إلى الطرمنطان. والرياح المزمجرة تُسَوِّطُ أشجَارَ السنديان الخضراء، وتَخْمِش أَشجارَ اللوز المُزهرة والنَّشَم العاري.

أفكر، دائماً، في ريح الرمل في الطرمنطان. وبشكل أخصّ في هذا الفصل، فَصْلِي أنا. هذا المساء من بداية شهر مارس من سنة 1994، الريح والتيه بين الأَسِرَّة، والعُزلة ربّما تقودني إلى الصحراء. فهناك، تمنح ريح الخماسين لفصل الربيع رائحة التراب. الحبّ بين الرجال والنساء لا يوجد إلاّ في الأغاني والحكايات والكتب. هناك، لم يكن لي سريرٌ إلاّ في وقت متأخّر. هناك، حصلتُ على حقّ النوم، بل على حقّ السَّهَر وحيدةً بِالقُوَّة. الحقّ في الأرق المُثَبَّت بالكُتُب والمحمول عبر أماكنهم البعيدة. لقد كان الأَرَق والعزلة والقراءة حرّياتي الأولى في مختلف أشكال الرُّقَاد المُرتَجَل والمُهَدَّد والمترحِّل.

هُنَاكَ

إلى متى تعود ذكرياتي الأولى عن أَسِرَّةِ الطفولة؟ من ثلاث سنوات ونصف إلى أربع سنوات. نعم، ليس أكثر. فلَدَيَّ بعضُ المَعَالِم. لقد كان ذلك قبل سنّ المدرسة. قُبَيل اندلاع حَرب الاستقلال. في الوقت الذي كان فيه الظهور النادر للجنود الذين يُخاطِرون بالقدوم إلى مَعْقِلِنَا المنعزل في سَفْح الكثيب، يُعتَبَر نوعاً من الظُّهور الدَّخِيل. ولم يكن يتمّ إيقاظُنَا بعدُ، في الصباح، بواسطة طلقات التحذير من «البازوكا» أو من مدافع أخرى في حقول الرماية. لم نكن نَهُبُّ من نومنا بعْدُ للذهاب لمشاهدة المظلّيين وهُم يتحركون على الكثيب كَرِجْلِ جَرَادٍ. لم تكن لدينا كهرباء بعدُ. وكنا نكتفي بِمسرجات(*) غاز الأسيتيلين. مقلاة وكَانُونان نستخدمهما في آنٍ واحدٍ كَمَوْقِدٍ وكوسيلة للتدفئة. ولم يكن يصلنا ماء الشرب. أبي كان يشتغل حارِساً لِخزّان ماء يقع على مسافة مائة متر من منزلنا. بينما كانت أُمّي تشتغل عاملة بالمقطوعيّة في الأشغال المنزلية. حشدٌ مِنَ الدلاء والأوعية، ومن المُشاجَرات ومن النحبكات ومغازي

(*) نوع من القناديل.

الأسطورة، ومن الدَّوْس ومن الظهور المُكَسَّرَة. كُلّ هذا ينسِجُ النَّهار بين الآبار وبين يَدَيْها المُنشَغِلَتَيْن دائماً.

كانت جدّتي وعمّي ينامان في المطبخ. بينما ينام أبَوَاي مع باقي الأبناء في الغرفة الوحيدة في البيت. حصيرةٌ من الحَلْفَاء، بطانيّة لكلّ واحد، ووَسَائد ملقاة فوقها ونحن نتمدَّدُ الواحد بجانب الآخَر. وفي فصل الشتاء، ننزلِق تحت البطّانيّة المشتَرَكة من الصّوف الذي يَزِنُ بؤسَ العالَم. خَشِنٌ جداً وسميكٌ جداً، كان هذا الغِطَاءُ يَعصرني، وكان يتَسبَّب لي بكوابيس من الاختناق. أستيقظُ مرات كثيرة في الليلة من شدة الاختناق. رائحة الصوف، روائِحُ عُفونَة الأحشاء الكامنة ليست بعيدة عن هذه الرائحة التي أحسّ بها. أجلسُ وأبحث عن الكانون بِعَيْنَيَّ دون أن أَعْثُرَ عليه. لم يعد يَحْمَرُّ قطّ. دمدمة، بالقرب منّي، تُنَبِّهُنِي. وضعية استلقائي أبعَدت الغطاء، هذا الشيء الخانِق، وكشفتْ عن أعناق وعن أكتافٍ.

فَهَلْ هنا يتجذّر الأرَقُ الذي سَيُعلِنُ سطوتَه بمجرد بُلُوغِ سنّ البلوغ؟ في هذا المكان الخانق، بِصَرامة التقاليد؟ في هذا النوم حيث تَتَرَصَّعُ مختلف الأجساد؟ وحشٌ مفترسٌ تُمَدِّدُ دَمدَمَاتُهُ وتجشّؤاتُهُ الليلية محظورات النهار وتَختَصِرُ كُلَّ واحدٍ إلى مُجرد عُضوٍ وإلى مجرّد وظيفة؟

في هذه السنّ لا أطرَحُ كلَّ هذه الأسئلة. أعرف فقط أنني أَختَنِق في الليل. أُحِسّ، فقط، بِوطأة الفراش، وشَرَك الأجساد. يَمُرُّ وقتٌ طويل قبل أن أُخرِجَهَا من أحشائي. وحين أنجح، أخيراً، في الجلوس، أُبْصِرُ رُقادَ الآخَرِين برعبٍ. أجسادٌ مُتلاحِمَةٌ بنفس

الغياب، الأجفان ملتصقة، تُصَوِّرُ تحالُفاً متكتماً، أجِدُني مضروداً منه. هجران الأجساد، أحياناً، يُروّعني. فيستولي عليّ إغواءُ خلخلتها لإنذارها ولتقديم المساعدة لها. الخوف من الدمدمات ومن سوء استقبالها، يوقف من اندفاعي. أمقُتُ النوم. أتمنى لو أنني لا أنام أبداً.

غير أنه، وبالرغم من مظاهر الظّلم الأولى، ومن بدايات الشقاء ومن أشكال التمرد والعصيان، فإنّ الطفولة تتكيف، لفترة طويلة، مع الاندهاش. وفي هذه الذكرى، أَزَاحَ عبيرُ الاستيقاظات الوضّاءة والنادرة، أيضاً، مختلفَ أشكالِ الرُّعْب ورائحة البَوْل الكريهة وانتفاخات غازية أخرى. رقّة مناغاة الإخوة والأخَوات الصِّغار. الضّبابة التي تتحرَّكُ مِن حَدَقَة إلى أُخرى. وعلى شاطئ الرقاد، جبهة مضغوطة مع أخرى، والسيقان المتداخلة، وسَبّابة هذا على وَجْنَة ذاك، على أنفه أو تُزخرِف لوحة محفوفة بالمَخاطِر هَذَيَان الكلمات، مُسارّات الأطفال تمتلك سِرَّ وغبطة النقاشات المحبّبة.

أنهضُ من سريري، وأَهْجُرُ المضجع الجماعي، أهرب من همهماته، وبخطى حَذِرَة، أَلْتَحِقُ بِسَرِيرِ جدّتي في المطبخ. دخولي المختَلِس وَسَطَ استغراقها في النوم لم يَعُد يُرعِبُهَا قطّ. تفتح لي ذراعَيْها المعتادتين وتَتَنَاغى ببعض كلمات التشجيع. أحتمي بها. وأَضَعُ وجهي في عنقها. وبضحكاتٍ محركة للعواطف، فتهمس لي ببعض حكايات الرَحّالَة(*). فجدّتي يَحْضُرُها الكلامُ كثيراً في الليل.

(*) الرحّالة هم قبائل الصحراء الرحّل.

فربما تَنتابُهَا، هي الأخرى، انقباضات نفسيّة. وأنا، الآن، أعتقد هذا. منفية من حياتها المترَحِّلَة، في سنّ متأخرة، لم تعد تملك إلاّ الكلمات كي تَهرُبَ من ثبات الاستقرار وكي تَجِدَ رَحَلاتِهَا ووصولها. تبدأ كلماتُها بالرقص في سواد الليل، على إيقاع خُطاهَا اللامحدودة على مَسالِكِ سُهْب الحلفاء، التي كانت، في ماضيها. هي تحكي. أنا أرى. أرى امتدادَ الحلفاءِ الرّمادي الأزرق. أرى هيجَان شَعَرِهَا في النَّسيم. أسمعُ تَكَدُّرَهُ النباتي حين تتمزَّقُ الرّيحُ وتَضأَى دون أن تعثُر على مكانٍ تتَوَقَّفُ فيه. أُحِسُّ نَفَسَهَا حيثُ تنتشر أسماء عطور كقصائد. أتخيَّلُ أياماً من المشي المنهك. شَبَح «جبل الحبّ» المنبطِح مثل ديناصور في سَعَة الفيافي. سُرعة الخيول الخاطِفَة. هَالَةٌ من الغبار الذي تَجُرُّهُ خلفَهَا. الجدة تمتلك سِجِلاً رائعاً عن الخيول، رمز الهِضَاب العليا. ولا أَرَاني إلاّ وقد أَخَذَتْنِي كوكبة فرسان مُجنَّحين، أخيراً، نحو النوم.

هُنَا

الغياب لا يكون رهيباً إلاّ في الليل. وَلاَ ينحَفِر صفاءُ الذِّهن إلاّ في الأرَق. في النهار يبتلعني الطبّ والكِتَابة بشكل كامل. في النهار أُعَالِجُ أجساداً أخرى أو أَعالِجُ نفسي من خلال الكِتَابة عن الجزائر، وعن الغنغرينة الوُجدانيّة. لا أَرَى الوقت يمرّ. ولكن الليل يعودُ بيأسِ بَلَدٍ. اندفاعات حبّ شبحيّ. الصمت المُضني.

وأنا منكمشة في سريري الصغير الموجود في مكتبي، يأتيني الانطباعُ بأنّ أصابع قَدَمَيَّ متجمِّدَة. أُحِسّ بخواء جَسَدي، وأن مُخّي مصنوع من زجاج مسحوق. الغير المُسَمَّى والدنِس يُهاجِمَانِنِي في هِجران الليل.

كي يتأتّى لِرَجل واحد أن يكون الحبَّ والعاشِقَ والصديقَ والأخَ والأبَ والأُمَّ والابنَ؟ قبيلة كاملة لوحده؟ لقد كان «جان-لويس» كلَّ هذا، خلال سبع عشرة سنة. أُحِسُّني يَتِيمَتَهُ، وهو الرجل المتعدِّد. أَعِدُ نفسي بألاّ أَذْهَب أبداً إلى مثل هذه التبعيّة. وألاَّ أُخفي، أَبَداً، كلّ هذه النقائص عبر حُضورٍ أوحد.

أُفكّر، في الظلام، في قبيلتي التي وُلدت فيها. لم أهجُرْها عَنْ رفضٍ أو عن تذوّقٍ للمغامَرَة. لقد قطعتُ نفسي عنها كي لا أموت

اختناقاً. والآن، ها أنا أفترقُ عن الرجل الذي أُحِبُّ لأنّه هو الذي يختنق مِنْ رؤية الجسد والعقل المُتَوَاطِئَيْن مع الكِتَابَة. هو يقول بأنَّ الكِتَابَةَ تحملني معها في حين تتركه، هو، في عين المكان. وقد أصبح بِسَبَبِهَا كئيباً وحاداً، هو الذي كان؟ فَرَحِي. في زمن غابر، كافحتْ عائلتي ضدّ شَرَهي نحو الكُتُب، مُعتَبِرَةً إيّاها بواكير عيوب، وآفات أمراض كبرى. ومن هذه الجوانب الأكثر تنوعاً، وَجَدتُنِي، بشكل دائم، عُرْضَةً للوساوس والغيرة التي يُثيرُها الكِتَاب. هذا الكتاب الذي أهرب منه طول الوقت.

لم يَحْظَ وَالِدَايَ بحظ ارتياد أية مدرسة، ولئن كانتْ مدرسةً قرآنية. فَهُما مُسْلِمَان بهذا الإيمان الذي لم يحتكَّ بأي خيار آخَر. صلابةٌ صَنَعَتْهَا قرونٌ من التقاليد الشفهية في خدمة إله واحد. ولكنَّ تواضُعَهُمَا تَحَوَّلَ إلى تشدُّد أمام كلّ خوف من الانشقاق. وخصوصاً إزاء الفتيات. وأمّا من ناحيتي، فقد كنتُ دائماً ضدّ التقاليد. أَلْتَحِمُ بِهَا حين ترتعش من المَشَاعِر وتغذّي العقل وتُثري الذاكرة. وأُواجِهُهَا وأُطَلِّقُهَا حين تتَجَمَّدُ في محظورات وتنتَصِبُ كَسِجْن.

الرفيق الذي اخترتُهُ لنفسي رجلٌ فرنسيٌّ، وإذا كان بعيداً كلَّ البعد عن نُزوع للهيمنة الذكورية، فلأنه كان دائماً ما يتّقي، هذا النزوع، كما لو أنه شكلٌ من أشكال العاهة. كان، فقط، يُحِسّ بالذعر حين يراني وأنا أُوغِلُ بعيداً في الكتابة. كان يخشى أن يفقدني، ولكنه كان بِصَدد فقداني. وطَالَمَا تمنّيتُ ألاّ يتخلى عنّي. ومع مرور الزمن، انتهت قبلاته لي، وأنا بين اليقظة والمنام، بإقناعي بِحُبِّنَا الأبديّ. لدى مُلامَسَاتِ شفتَيْهِ الخفيفة لجسمي، في الليل، كانت ذِرَاعاهُ وجسده قارّتي. ولكن مأساة الجزائر فتحت، من

جديد، جراحات في داخلي. ندوب قديمة أحسَّ أمامها بأنه عاجِز وبأنه مستثنى منها. وأنا الملتوية من جراء كلّ هذا، أقول لنفسي: «العزلة تلاحقني!» ما الذي يتوجَّب فعله حين يذوب كلُّ شيء وينوس سوى الذهاب حتى النهاية؟ ومع الكبرياء المُعانِدة التي جعلتني أعتقد أنني قادرة، على الأقلّ، على التحكّم في كلّ ما يتعلّق بِقَراري. أعرفُ دائماً ثمنَ الحرية. وأعرِفُ ما أَدِينُ به للكُتُب. وأعرف أيضاً جسَامَةَ ما يستعصي عليَّ.

لم تنتظر الأشياء إلى اليوم لِتَتَحرَّكَ. ففي سنة 1994، وهذا يعود إلى تسع سنوات خلت، فرضتِ الكتابةُ نفسَهَا عليَّ. وقد كان لمهنة الطبّ المتخصص أن تدفعَ الثمن الأوليّ. تسع سنوات من المهنة، التي أقدّسها، وَجَدَتْ نفسَهَا تنزل إلى المقام الثاني. وعدم فهم «جون-لويس» بدأ من هذه اللحظة. في بداية الكتابة وتساؤلاتِهَا. بالرغم من أنّه كان فخوراً بعنادي وإصراري.

«الرجال لا يتحملون امرأةً تُمارِسُ الكتابة. إنّ الأمرَ قاسٍ بالنسبة للرَّجُل. والأمر صعبٌ للجميع.» هذا ما قالته «مارغريت ديراس» في «الكِتَابة». «ديراس» الجازمة.

كلّ هذه القطائع، كلّ عمليات البَتْر هذه، كانت، في البداية، من أجل اقتلاع حقّ اتخاذ قراري الشخصيّ، ومن ثَمَّ المحافظة عليه. في كلّ لحظة. انتهى الأمرُ بهذا التكرار إلى انتزاع جزءٍ من الثمالة من عبور مختلف أشكال الضيق والشقاء. وهذا التكرار غمر الرَّفْضَ باللذّة. غير أني لم أَعُد، قطّ، أُطِيقُ المزاوجة بين الرفض والهجران والتنفس، وبين التخلّي. لم أعد أريد هذه المُزَاوَجَة. لقد هجرتُ عائلتي والصحراءَ وغراميّاتي الجزائريّةَ والبَلَدَ... وهذه أول

مرة، أظلُّ فيها في مكانِ قطيعةٍ مَا. ولكنّها منزلي أنا. وقد أضعتُ كثيراً من الوقت كي أَجِد هذا الموقعَ. لقد كان حبّي لَهُ صاعِقاً، من أول نظرة، حبّي لأشجاره ولحيطانِهِ الحجريّة، ولموقعه كَعُشٍّ نَسْر على حافة مُنْحَدَر صخريّ. لقد رسَمَهُ المهندسُ المعماريُّ على ضوء توجيهاتي وإرشاداتي. وقد اضطُرَّ عدة مرات أن يُراجِع نسختَهُ إلى أن تلاءَمَت، بشكل كامل، مع ما أَنتَظِرُهُ. بل وصل الأمر بِيَ حدّ أنني خطَّطْتُ السّطيحات ونقشتُ الحديقَة... كثيراً ما يُقالُ لي بأنني صنَعتُه على صورتي، أي عربياً ومتوسّطياً. وبمجرَّد أن قطنتُ فيه بدأتُ الكتابَةَ. كما لو أنّ الكِتَابَةَ انتظَرَتْ أن يتحقَّقَ هذا المكانُ كي تأتي، أخيراً. ولكنَّ بلبلةً أخرى، والحقّ يُقَالُ تَسَلَّطَتْ عليَّ... ولكني، ومنذ هذه اللحظة، لم أَعُدْ في حاجة إلى الفرار. منذ هذه اللحظة، انبثَقَت الكِتابةُ، الانطلاقُ الأكبرُ، وفيها أُحاوِل أن أذهَب إلى أقصى حدّ. والآن علَيَّ أن أُسَائِلَ صمتَ الماضي كي أسكن بشكل جيّد، مَعْقِلَ عزلتي.

لا يَتَضَمّن عنواني أيَّ شارع. طريق قصير يُحاذي حافة صخرية. طريقُ المجالات الممتدّة. أقول: «صحرائي الممتدّة»، وأَمْشِي تيهاً، في داخلي: «لا مكانَ للصدفة، وليس عليك أن تخترعيها! المَصَائِبُ التي تتسلّط على المسالك، هذه الأشياء أنتِ تعرفِينَهَا»

هل هذه عادةٌ منّي كمُغْتَرِبَةٍ وكَمريضَةٍ بالأَرَق، أنْ أحكي قصصاً وحكايات؟ وهل هذا خوفٌ من أنْ أَضِيعَ؟ هل من أجل تَنْويم تهديداتِ المجهول؟ وهل هي طريقةٌ في التواجد على الرغم من كلّ شيء؟ هل أنا، وكما هو حال جدّتي، في حاجةٍ إلى كلماتِ مُغَادَرَةٍ

وَوُصولٍ من أجل العثور على الراحة. صوتُ الصحراء الذي يأتي، أحياناً رتيباً، وأحياناً أخرى، مُهَلْوَساً. وكما هو حالُ الصّحراء، فأنا لا أملِكُ سوى كلمات، وسوى ذاكِرَتها المُرصَّعة من أجل تخطّي الهاوية.

قُمنَا، بأنفسنا، بأشياءَ كثيرةٍ في هذا المنزل. وكل الأمكنة التي تَطَلَّبَتْ مِنّا ساعات من الشُّغْل المُشْتَرَك تُزعِجُني، الآنَ. النصفية، مكان الكِتَابة، يَظَلّ ملاذاً. كما لو أنّ السنوات التي قضيتُهَا في الكِتَابَة في هذا المنزل ثبّتت العزلةَ، بقوةٍ، مُبْعِدَةً، شيئاً فشيئاً، كلَّ عائق أمامَ هذا المخطّط. الوقتُ المحصورُ للكِتابة يمنح بُرجَ القلعة الرئيسيّ، الذي تُمثّله النصفيةُ، سبَبَ جَدواهُ الأوحدَ.

تَكسير السّرير! يتَوجَّبُ تكسيرِ هذا السرير الذي صَنَعَهُ بِيَدَيهِ. تكسيرُ هذا السّرير بِيَدَيَّ. تفكيكُ صفائِحِ هذا الطَّوْف المهجور، واحدة تلو الأخرى، في غرفةٍ فارغةٍ. لقد عرَفْتُ بشكلٍ دائم التكسيرَ وإحداثَ القطائع. الثِقَلُ المُسْتَأْصَلُ من الصَّدْر الذي يَحْفِرُ فراغاً عميقاً جِدّاً. وَلكِنَّ القطيعةَ تَتَبَاهَى بِسِحْرِهَا الذي لا يَخْطُر بالبال. إنها تُلبِسُ الألَمَ واليأسَ لُبوسَ الخلاص وتُلهِبُهُمَا بالرغبة. إنها تتجَاوَزُ الخوفَ، كُلَّ أنواع الخوف، وتذهبُ بي، دائماً، بعيداً. في هذا المكان حيثُ لا شيءَ يَصْمُد بعد المواجهات والتمَزُّقَات ماعدا بعض الذكريات المُقْتَلَعَة.

لقد عرفتُ دائماً كيف أَتَبَاهَى من أجل صدِّ التَّفجع.

سأَتَجَمَّدُ بعد قليل، في النوم. جلدي بدأ يَحتَرِقُ تحت فراش الرّيش. أُخرِجُ سَاقَيَّ، ذِرَاعَيَّ، وأحاول التخلُّصَ من الأرق. وفي

الخارج، تدمدم ريحُ الطرمنطان دون أن تَفْقِدَ مِنْ نَفَسِهَا. كَمْ من الوقت سَتُزَمْجِرُ؟ الناسُ يعطونها فترة ما، وتمديدات ثلاثيّة: ثلاثة أيام، ستة، تسعة . . . متتابعة. ولكنّ ريح الطرمنطان تسخر من هذه الأقاويل، وتسخَرُ، أحياناً، حتى من التنبؤات. إنها تستسلم لانقباضها إلى أن تُبْصِقَ رُوحَهُ بِصُراخات مجنونة. إنها تَبْرِي زرقة السماء، وتقشر الأرض المحصبة، وتَحْقِنُ العيون، وتزيد من توتّر الأعصاب إلى درجة وضع المخّ في حالة يُرثَى لها.

أعشق الريح، كلَّ الرياح، وخصوصاً في الليل. ريح الرمل في الصحراء، والطرمنطان هنا. كلّ حُبَيْبَات البحر. أُحِبُّهَا عنيفة وشَرِسَة. حين تتهاوى كَخَبْطٍ على خرخرات العالَم. هذا المساء، وخلف الطرمنطان، يبدو لي أنني أسمع نَزِيبَ[3] ريح الرمل وهي تحثّني:

«كَسِّرِي، هذا السرير الرديء، كلّ الروابط، كلّ الحدود التي تضع فِخاخاً. كلّ عبادات الحبّ. كلّ هذا البريق والبهرج. وحتّى خُرْدَوَات التذكار!»

الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً. أُلْقِي بغطائي المصنوع من الرّيش، بحركة سريعة، وأقفزُ من السرير، وأذهبُ للبحث عن كوب ماء. أُحِسُّ ببعض حبات الرمل تحت جفنَيَّ وبِبَاس حنجرتي.

(3) صوت الأيّل.

هناك

ليس العطش سوى لحظة الصحو من القلق الطويل الذي ينتهي به الأمرُ إلى إخراجي من تحت غطائي في أيّة ساعة من الليل. في البداية اختناق رهيب. ثِقل ساحِق. زمن متوقف. أتخبّط كي أستيقظ بإحساس يقول لي إنني لن أنجح أبداً. وشيئاً فشيئاً ينبثق إحساس آخَر: أَجِدُنِي في العمق، تحت كلّ الأجساد. كما لو أنّ السريرَ العائليّ انحفر كَمَقبرة جماعية. حَرارَة الصّوف الخانقة المبلَّلَة بالبول. حالة غيبوبة. ما أزالُ أُصَارِعُ. النارُ في حنجرتي، لفّات الدمّ في الرأس، أَصِلُ، أخيراً، إلى مسطح الوعي. أُحَمْلِقُ. كيف سأستطيع أن أخلع أعضائي وصدري من أعضاء وصدور الآخَرين؟ وأَنتَهي، عبر زَحْف مدروس، وقَلِق، إلى أن أقتلع نفسي من الجُلّ المُزَرْكَش الذي تمّ نسجه في المنزل. بسرعة، أقف على رِجليّ، وبرودة الغرفة تعطيني إحساساً بالارتياح. أحتاج إلى أن أشرب.

أُلقِي نَظرة نحو أُمّي الممدَّدة على مبعدة بعض أجساد. تخترقني فكرة عبور هذه الأجساد للالتجاء إلى سكينة صدرها، وإلى تقوية النفس بالاحتكاك بنَهدَيْها. أعرف أنّ هذه الفكرة السخيفة جَعَلَهَا الأرَقُ، ربما، سهلةَ المَنَال. ولكنّ اليقين سرعان ما يتوقف حينما

أعرف أنّ أُمّي ستضَع لي حدّاً. فأخي الأصغرُ هو الذي يَنام إلى جنْبِهَا. خلال النهار، أخي الأصغر هو الذي يمتلك امتيازَ احتلال حِجْرهَا. خلال اللحظات النادرة حين لا تكون مشغولةً بتأدية الأعباء المنزلية.

بعد أن تجاوزتُ توجّسي من سواد الليل، اتجهتُ بِخُطًى حَذِرَة نحو جرّة الماء واغترفتُ منها قليلاً. «هل هي أنتِ؟» سؤال جدّتي منحني جناحَيْن. أطير نَحوَهَا. إنّه من النادر أن تكون مستغرقةً في النوم، أو أن تستيقظ عند تيَهَاني الصامت في الليل. في هذه المساءات أُحِسُّ بافتقادِهَا بشكلٍ رهيب. وَوَحْدَهُ المَنْفَذُ المريب إلى نومها، الذي أعرِف هشاشَتَه، يمنعني من الالتجاء إلى فِرَاشِهَا. فأُقرّر إذاً، وروحي معذبّةٌ، أن أتسمَّعَ إلى صمت المنزل، وأن أُدَجِّنَ الظلامَ. في إحدى طوافاتي الليلية، قلبتُ الجرّة الكبيرة. فكسَّرتْ هذه الحركة المنحوسة احتيَاطَنَا الرئيسي من الماء. الخطى المتسرّعة. صرخات. صلوات وعِظات لاتقاء المخاطر التي ترصد الهفوات الطائشة في الظلام. وبحركة من أُمّي وضعتني، من جديد، بين الآخَرين، تحت سُمك الفراش: ومن الآن فصاعداً تقرر حَظْر استيقاظي في الليل. وإلاّ تعرّضت لعقوبات قاسية.

أمي تنظر بقلق إلى الفتنة التي تمارسها عليَّ جدّتي. إنها لا تحبّ أن ترى حماية جدتي وهي تخلّصني من الأوامر، وتحميني من غضبها. إنها تخشى أن يُفسِدَ حنوُّها من طبعي الذي بدت عليه آثارُ التعنّت والجموح. كانت تتمنى لو أنّها وجدتْ في حَمَاتِهَا حليفةً لتهذيبي ولتنقيح خشونتي وفظاظة طبعي. بَدَا لأمّي كما لو أنّ المرأة العجوز تَدُسّ عليها كي تحرِمَهَا من سلطتها الوحيدة: وهي أن

تصنعني وفق ما تنتظرُهُ مني. بدا لي أنها لا ترى في ضَحِكِنَا إلاّ قُوَّتَيْن متحالفتين لدفعها للمعاناة كما يُضنيها عِبءُ الكدّ والتنكيدات.

إنّ حبّ الأمهات يُقاسُ بقدرتهِنَّ على تصفيح بنَاتِهِنَّ ضدّ مشاكل الحياة. وبدون أن أُغَيِّرَ شيئاً. وبدون أن أتبرّم. سأعرفُ هذا، ولكن في وقت متأخر جداً. في هذه اللحظة، وَحدَهُ كان يُحاصِرُني حِرمانٌ رهيبٌ، وارتباك من شعورٍ ناشئٍ من الظُّلْم. ولكنّ هذه الانطباعات لا تكفي لتفسير أشكال الرعب الليليّ وحاجتي إلى العزلة وإلى الأرَق. هذه الأشياء تَتَرَسَّخُ في شيء مطمور ومخفيّ بشكل كبير. أُحِسّ بنفس القلق أثناء كتابتها.

لم يكن عمري قد بلغَ سنّ الرابعة بعدُ. صوتٌ غيرُ مألوف أيقظني من نومي. جلستُ، مذعورة، من حشرجات مخنوقة. وعلى الرغم من الظلام، فإني لم أتأخّر في تمييز وضعية أَبِي المثيرة وهو فَوْق أُمّي. اعتقدتُ أنه منهمكٌ في ضَرْبِهَا، فانفجرتُ، باكيةً وأنا أصيحُ: «ما الذي تفعله مع أمي؟ لماذا تضربها؟!» رأيتُ وسمعتُ جِسم أبي وهو يتدحرج ويدور على الجانب. فتوقفتْ الأنّاتُ فوراً: «اخرسي ونامي أيّتُهَا الأفعى!»

ومن مساء اليوم التالي، تمّ وضع فراش لي في المطبخ بمحاذاة فراش جدتي: «من الآن فصاعداً، ستنامين هنا، ولن تستيقظي أبداً في الليل. فالجنودُ المظلّيون موجودون في كلّ مكان في سواد الليل. يقومون بالسرقة وباغتصاب الفتيات اللواتي لا نعثُرُ عليهنّ أبداً. فَهَل رأيتِ كيف تقوم مَدَافِعُهم (الهاون) بِخَرق الكثبان الرملية؟ وهل رأيتِ كيف يقومون بممارسة العنف حتى على الرجال؟»

رأيتُ. رأيتُ الخوفَ، الإهانات المُوَجَّهَة للرجال. الدموع وغضب النساء. لا أحد يُنكِر هذا. ولكِنَّ فرَجِي، في هذا المساء، لَمْ يَدَع أيّ تأثير ولا سيطرة للخوف. كنتُ مُتكزِّزَةً، فركّزت نظري على جدّتي، وتَفاجأتُ ببريق عينيها. مَنْ يستطيع أن يعرف من كانت الأكثر سعادة من بين المُتَآمِرَتَيْن.

هنا

وحدَها قُوَّةُ العادة هي التي تقودنِي إلى البيت حين أنزع قميص الطبيب. جسدي والعالم لم يَعُدْ لهما معنى. هزّاتٌ عديدة حوَّلَتْهُمَا إلى فَضَلات. أحياناً من شدّة السخرية أقول في نفسي إنّ سيارتي تُشبه الحميرَ، هناكَ. يكفي أن تركَبَ وتصيحَ آمِراً: إرّا ررر! كي تتحرّك، وفي غياب أوامر أخرى، تنقَلِبُ، بشكل مستقيم، باتجاه مَذَاوِدِهَا.

أنا، لم أعد آكُل شيئاً.

حِينما أَصِلُ إلى بيتي، أول حركة أقوم بها تتمثل في انتشال الهاتف. فقطع الاتصال، ونشرُ الصمت، هي طريقتي في الرحيل، هذه المرة. في ترك الطبيعة حيَّةً. لأني أعرف أنها قطيعةٌ نهائيةٌ. «جان-لويس» لا يُريد أن يرى الأمرَ هكذا. ما زالَ يرفُضُ تصديق الأمر. أثناء نقاشنا الأخير قُبَيل افتراقنا، هنا في البيت، اعتَرَف: «لقد سِرتُ في السيارة وأنا أبكي على الهِضَاب بينما كنتِ أنتِ تُوَقِّعِين كُتُبَكِ. لم تكن عندي سوى رغبة واحدة: الانطلاق بسرعة والاصطدام بشجرة دُلْب. ولكني لم أمتَلِكْ هذه الشجاعة.» مرة أخرى قال بِهَمس: «بمجرد أن بدأتِ الكتابة، انتابني إحساس بأنّك

صعدتِ إلى قاطرةٍ تاركةً إيايَ على الرصيف. . .» كان كتابي الثالث «الممنوعة» قد حصل للتوّ على استقبال مشجّع في فرنسا. في الوقت نفسه، كان «جان-لويس» يجتاز مرحلة حَرِجَة على الصعيد المهني. وكي يُؤتي عَمَلي أُكُلَهُ، ولأني قررت أن أَحْفِرَ في الأجزاء المخفية من ماضيَّ، فقد أَجَّلْتُ، دونما انقطاع، رحلة حول العالَم في القارب التي كان يصبو إليها بشكل كبير. . . ولكني كنتُ على يقين من أنه سيتجاوَزُ هذه المرحلة الصعبة. كنتُ أعتمد على ذكائه وعلى حبّه. كنتُ في حاجة إلى الكتابة. وكنتُ في حاجة إليه. وعلى الرغم من كلّ مجهوداتي، لم أستَطِعْ أنْ أفعلَ شيئاً إزاءَ خشونته حيث يمتَزِجُ شُعورٌ بالهجران وبالغيرة. انتهى بِيَ الأمر باتخاذ القرار الذي يتوجب عليَّ اتخاذه: «سوف أُجري اتصالات بوكالات الإيجار، غداً. سأُحَاوِلُ العثور على مكان أسكُنُ فيه.» فقال معترضاً إنّ هذا البيتَ هو بيتي أيضاً. وإذا كان مفروضا على واحد منا أن يهجر البيت، فهو الذي عليه أن يغادر. قال هذا، دون أن يكون مُقْتَنِعاً بما يقول، حقيقةً. «إذاً من فضلكِ، نَفِّذْ قَرارَكَ فوراً! الآن! أريد أن تُغادِرَ! حالاً!»

أُؤَجِّجُ النارَ في المدفأة، وأُهَيِّئُ لنفسي كأساً مُتْرَعَةً من الويسكي، وأنا أقرأ، وبَطْني متوتِّرٌ، تكدُّسَ المقالات الصحفيّة عن الخراب والدمارات الشديدة في الجزائر، مُنتظِرَةً نشرة الأخبار المُتَلْفَزَة. المَجَازِر التي تحدث في البلد تزيد من معاناتي الأخرى. فكلّ يومٍ ينكأ عدد من القتلى، جِراحاً أخرى.

قبلَ أن أذهبَ إلى سريري، أجتهد لكي أشربَ كأس كبيرة من

الحليب، وأبتلع بعض الفواكه. ثم ألْتَجِئ إلى سرير النصفية، أَكْتبُ. أُسَوِّدُ صفحات، كتابة غاضبة. كنتُ سأموتُ لو لم أَلْتَجِئْ إلى الكِتابة. بدون هذه الرَّشقات من الكلمات، فإنّ عنفَ البلد، واليأس الذي سبّبهُ الافتراقُ، كان سيُفجِّرني ويسْحَقُنِي. إنّ الأُصوليين يُهدِّدون بأن يقتُلوا بحدّ السيّف من يَرْتَكِبُ الإثم بالقَلَم. وأنا واحدةٌ مِن الذين حين يكونون مُسَمَّرين على صفحة أو على شاشة كمبيوتر، يَرُدّون عبر طعنٍ لاذِعٍ على خراب الحياة، على جنون السكاكين وعلى رَقَصَات الكلاشينكوفات.

أكتب حتى ساعة متأخرة، حتى الإنهاك. أكتبُ رِوايةَ-روايتي الرابعة- هجائيّةً حول الجزائر. أكتب طول الوقت. وحتى بين استشارتين طبّيَتَيْن. بطبيعة الحال، أتوفر، دائماً، على دفاتر بالقرب من السّرير كي أُسَجِّل الكلمات التي تنبثق، بشكل مُفاجِئ، في الأَرَق، بعد ساعات أقضيها في التملّص وفي المقاومة. في السابق، كانت هذه الدفاتر مُهيَّأة لِتَثبيت لقاءات واكتشافات، وللأفكار العابرة. وأحياناً لتأملات ما زالتْ متلعثمة. الأحاسيس التي تمدّ وتسكن لحظات اليقظة. في الماضي كان النهارُ يكفيني لأن أكتب. والآن، استولت حُمَّى الكتابة على سريري، وعلى لياليَّ أيضاً. كلمات التمرّد، والارتباك تطاردني حتى شراشفي. استولتْ على مواقِعِ أَرَقِي الأخيرة. والحُبُّ ليس موجوداً، هنا، لإيقافها.

هناك

مليئة بالفحم الحجري، الرأسُ متوهِّج، المِقْلاَة تُخَرْخِر وتتباهى مثل ديك روميّ في زاوية المطبخ. لعبة النيران المنبعثة من السراجين تُنَظِّمُ الاستعراضَ الغريبَ للظِّلال على الحيطان. وأنا مُمَدَّدَةٌ في حرارة البيت، أنا سجينةُ حَرَكات أُمّي وجدّتي. قَضَتَا ما بعدَ الظهيرة في تنظيم مِهْنة النَّسْج في المطبخ، وفي تثبيت لُحْمَة السجّاد. الجَدَّة، وبَاعِثٍ من الشَّرَف والنخوة علَّمتْ ابنة أخيها وزوجة ابنها، فَنَّ الصوف، المُضْجِر، بالتأكيد، ولكن الشريف. تُنَفِّذُ أُمّي أوامر جدّتي عن طِيبِ خاطرٍ. بل وأحياناً بمتعة حقيقيّة. أسابيعُ عديدةٌ تمضي في الغسيل وفي كَشْط ونَدْف ونسج وتخضيب وصبغ جُزازات الخِرفان. والآن شِلاّت صوف تَتَراكَمُ وتتكدَّسُ، خضراءَ وحمراءَ وبيضاءَ ونيليّة وصهباءَ، جاهِزةً لما هو شاقّ، وهو تحويل الشُّغْل إلى عمل مُكْتمِل.

أواني مائدة العشاء مُنَظَّفَةٌ ومصفوفة، وفِراش كُلِّ وَاحِدٍ مبسوطٌ ومنصوبٌ، وأمي منهمكةٌ في مهنة النسج. جالسةً في بدلتها النسائيّة، وظَهرُها مُتَقَوِّسٌ بِشكلٍ خفيف. وهي تُحَاوِل جاهدةً إدخال حبال قصيرة ملونة في لُحْمَة النَّسيج. تقوم بتثبيتها بِعُقَدٍ قبل أن تقوم بِقَطع

الخيوط، وتوازن طولها. وتحت عَيْن المرأة العجوز اليَقِظَة، تقوم بِتَكْتيل المجموع بحركات متقطعة وغير منتظمة من الضَّربات باستخدام مُشْطَة كبيرة من الحديد المصبوب وتبدأُ، من جديد، سردةَ نسيجٍ في الأعلى. مِغْزَل، تُحَرِّكُه سرعةٌ مُدَوِّخَةٌ، يصعد ويَهْبِطُ على طولِ سَاقِ جدّتي وهو يثير دَوَّارَة.

لا تتحدث السيدتان فيما بينهما إلاّ نادراً. والقليل من الكلمات التي يتبَادَلانهَا يبدو أنها تَظَلُّ حبيسة في خرخرات المقلاة. لَقد هدَّأَ الشغلُ من عدم تفاهُمِهِمَا الاعتياديّ. بينما ينام الإخوةُ والأخواتُ في الغرفة المجاورة، أمّا أبي وعمّي فيكملان السَّهرة. وربما هما منهمكان في لعب الوَرَق.

أتذوَّقُ سعادةَ سريري الجديد. الغطاء الذي أتقاسمه مع جدّتي يبدو خفيفاً وَوَثِيراً. لي البطانيّة البالية نفسها الموضوعة على حصيرة من الحلفاء. وبانزلاق من رأسي، أقوم بحكّ وجنتي بوجنة جَدّتي. هي من السُّندُس. تنبعثُ منها رائحةُ المسك. فهل توجد هذه الرائحة فقط في مِنْخَارَيَّ؟ أعرف أنّ جدتي تحمل قارورةً صغيرة من مادّة ثمينة معلقة بِبِدلتها بِمِشْبك. أتلذّذُ كثيراً بتخلّصي من استنشاق نتانة القطن الممزوج بِبَوْل إخواني وأَخَواتي الصغار. أتمتّعُ كثيراً بقدرتي على تحريك أعضاء جسمي دون أن أتسبب في همهمات، أتمتّع بامتلاكي لِجَسَدي. أَشْرَعُ في التمطُّط في مُنْحَرَف سريرَيْن ممنوحين وأعود إلى مَشْهَد الغرفة.

يستأثر بمشاهدتي من جديد «باليه» حركات المرأتين، والهرمونيا الخافتة للأصوات والتمثيل الإيمائيّ للظلال على الجدران والجوّ المُحْمَرّ. تسكت جدتي. تمنحُ نفسَها، بشكل كامل، لحركات

الرقص التمثيلي الذي يُشَكِّلُها النَّوْل. تمنحنا مشهداً من حياتها الماضية. يمتلكني هذا الإحساس. أنا مدعوّةٌ إلى مُشَاهَدَة تمثيلية. أمتلئُ برؤية هذه القيثارة المُذْهِشَة التي يشكلها النَّوْل. موسيقاها الخافضة. الديكور السَّبيدَجِيّ، المائل إلى السواد، الذي تُساهم في تشكيله مِدفأةٌ ساخرةٌ وعفريتان منبثقان من بَطْنَيِ السّراجين. أُمَتِّعُ عينَيَّ بالمشهد قبل أن يختفي كلّ شيء، إلى الأبد، حين سيتمّ النّفخُ على النيران.

الغرفةُ، من الآن فصاعداً، في نصف ظلام: المدفأةُ خفَّفَتْ من غَطْغَطَتِها. أُميِّزُ بصعوبة بين الإطار والنَّوْل. جدّتي المتمددّة إلى جانبي، لا تقوى على النوم هي الأخرى. أُصِيخُ بسمعي دون أن أستطيع أن أتبيَّنَ أصواتَ أحذية الجند. يتسلّى العَسْكَرُ في إزعاجنا من خِلال طُرُق عديدة. أحياناً في جماعات صغيرة من المشاة تحت إمرة عريفٍ تُقَطِّع الليلَ وتَدُكُّ الأرض. وأحياناً أخرى ينبثقون كشياطين دون أن نَرى شيئاً. خزّان الماء الذي يوجد بالقرب من منزلنا هو مكانٌ استراتيجيٌّ في الصّحراء. وكان المُقاوِمون يستخدمونه لتموين حاجياتهم. فكان الجيش الفرنسيُّ يصبو لمفاجأتهم في هذا الموقع. وبما أنه لم يكن يستطيع الإيقاع بهم، فقد كان يتّهم أبي ويُسيءُ معامَلَتَهُ.

ولكنّ جدتي في هذا المساء لم تكن قَلِقَةً. فقد كانت مغامرةُ النَّهَارِ لَمَّا تسكنها. وقد اكتشفتُ هذا، لَمّا بدأت، وبصوت خافت، تحكي لي حكايات جنّيّات عن السجّاد. فكانت إحدى هذه الحكايات تسحرني:

– حَاجِيتَكْ مَاجِيتَكْ، كان في قديم الزّمان رَجُلٌ يتمتع بقدرة كبيرة على تقييم وتقدير السجّاد إلى درجة أنه كان يقطع السهوب والصحارى، متنقلاً من سوق إلى آخَر لتمتيع نظره. وذات يوم، سَيَكْتَشِفُ واحدة منها ذات بهاء لا يُضَاهَى. فَبَاعَ نصفَ قطيعِهِ كي يشتري هذا السجاد. ومن ذلك اليوم، لم يستَطِعْ أحدٌ من النّاس أن يجعله يشيح بعينَيْهِ من تأمُّلِ سجّادِهِ. وبعد استنفاد جميع الوسائل تمّت استشارةُ وليّ وسَاحِر كي يحاول فَكَّ سِحْرِه. ولكن شيئاً لم ينجح. وبعد أيّام من السكوت ومن الصوم قرّر الرَّجُل، أخيراً، أن يتحَدَّثَ ليُعلنَ أنه سيموت على هذا الفِراش إذا لم يُعْثَرْ لهُ على المرأة التي صَنَعَتْ هذا السجّاد الرائِعَ. فرأى الناس أنّ المسألة سهلةٌ جداً. فكل التُجّار يعرفون هذه المرأة البارعة وكانوا يتصارعون للحصول على صناعتها. هناك من يقول إنها متزوِّجَةٌ مع شخصٍ شَرِس. فكان الرجل يَهْمِسُ إن المرأة الشقيّة وضعتْ كراهيتها ونَوْلَهَا وعَبقريتها بينها وبين هذا الرجل الفظّ. وكان ثمّةَ من يدّعي أنّ زوجها الفظّ، وتحت إغراء طعْم الأرباح، التي كانت تتَضَاعَفُ شيئاً فشيئاً، انتهى به الأمر لأن يَدَعَهَا تتفرّغ لِفَنِّهَا واتّخَذ لنفسه زوجة ثانية... ويُحكى أنّ مجنونَ هذه المرأة الجميلة، وبعد أن أضاءت قلبه كلّ هذه الاعترافات والرؤى، أصبح شخصاً لا يُقْهَر في فنّ مغافلة الحراس وفي إحباط المراقبة كي يكون بِجنب المرأة. ويقال إنّهما معا، ومنذ هذه اللحظة، يعكفان، طول الليل، على عَرْبسات وزخرفات غريبة، وُقوفاً، خلف لُحْمة نَوْل الحياكة. ويقال إنه لهذا السبب تمّ إطلاق تسمية «السرير الواقف» على نَوْل حِياكة المرأةِ الجميلةِ. ويقال أيضا بأنه من أجل الحفاظ على سرّ العاشقين، حَرَصَ التجار، ولفترة

طويلة، على القول إن هذه التسمية مستوحاة من قدرة هذه السجاجيد على تجميد عيون الناس الواقفين في الأسواق بالقرب منها.

ولم يتمّ الكشف عن هذه الحيلة إلاّ بعد وفاة العشيقين السرّيَيْن.

كانت هذه أوّلَ قصّة حبّ تحكى على مسامعي. لا أعرف ما الذي تعنيه هذه الكلمة، الحبّ. ولكنّ حمولَتَها من الألغاز والمحرّمات تفعل فِعْلَها. في نور المطبخ الخفيف، أستطيع أن ألمح إطَار نَوْل الحياكة. إنه سريرٌ عموديٌّ، من دون شَكّ. في الفترة التي يَظَلُّ فيها منتصباً، فسأستَيْقِظُ مرات عديدة للذهاب مُنْدَسَّةً خلف اللُّحمة على أَمَل أن أُفَاجِئَ فيها الرقصة الغامضة للعاشِقَيْن الراحِلَيْن.

كثيراً ما أسمعُ إجماعاً على مديح طبخ والِدَتي. ولكن لا أحد يجرُؤُ على الادعاء بأنّ السجّاد المكتملَ جميلٌ. ويتمّ الاكتفاءُ بعبارة: «محاولة أولى». هزّة من الرأس تتركُ الكَلمةَ مُعلّقةً. جدتي تُجهِد نفسها في التشجيعات، متبنّيةً تسامُحَ الأسلاف. بينما أُمّي، وهي محمولة على نوبات جسارة، تُواصِل شغلها وهي تنسج مخدّتين. كانت هاتان المخدّتان الموجّهتان لتزيين هذا السجاد المعلوم، رديئتين بحيث إنه لا أحد تجرّأَ على إصدار تعليقٍ مَا. حينها تذرّعتْ أُمّي بِصعوبة هذا الشغل بالإضافة إلى عبء العمل اليوميّ كي تعلن عن انسحابها من المباراة وتُطالِبَ بآلةِ خياطة.

غادرتْ جدّتي المطبخ كي لا تَشْهَد، بنفسها، تفكيك المهنة. روافِدُها انتهى بها المَطَافُ إلى أن تصبح إطارات الألواح الزجاجية في النوافذ، وفتائل لِتَنَاسُلاتٍ من اللهيب.

وبهذه الطريقة أقامَت جدّتي حِدَادَهَا على عدم قدرتها على النقل والإيصال، وعلى إنقاذ فنّ الماضي، الاشتغال بالصُّوف. فاضطَرَّتْ إلى قبول هذ المسألة البدهية: وَحْدَهَا الكَلِمَاتُ، الكلمات المأثورة، تبقى قادرة على الحديث عن ميراثها الوحيد، وذاكرتها المترَحِّلَة. أمّا أُمّي فقد عادت إلى أشغالها البيتيّة. هي عبوديّة بحيث لا يستطيع أيُّ عَشيقٍ آخَر أن يَعْلَق بها. ولهذا السبب، فإن والدي اضطُرَّ إلى الاكتفاءِ بِزَوجةٍ واحدة.

هنا

أأطفو بِبُطْء خارجة من حُلْمِي، وأَتَسَاءَلُ مع نفسي عَبر أيّة مُعجِزَة استطاع هذا الجزءُ من الطفولة أن ينبثق من جديد. ولماذا هذا الجُزْءُ؟ عدتُ إلى المنزل بعد يوم من الشغل. في هذه السنة، 1994، يتقدم فصلُ الربيع إلى الوراء. بردٌ حادٌّ يتلوّى في «مونبوليي» حيث تفتحت كلّ البَرَاعِم. زهرات أشجار اللوز تَفْرِش الحدائقَ بِنِثَارِهَا. والضياءُ يُبَلِّرُ السماءَ.

عندما فتحت الباب، لم يَسْتَقْبِلْنِي الدِّفْءُ المُعْتَاد المُرْتَتَج على نار الحطب. تَوَجَّهْتُ إلى العمل بتسرّع، ناسيةً وضع حَطَبة كبيرة في المِدْفَأة. درجة حَرارة المنزل ستتأثّر. قبل أن أخلع معطفي، قمتُ بإعداد النار. ثم، نزعتُ الهاتفَ كما أفعل كلّ يوم ومنذ أكثر من خمسة عشر يوماً. أكثر من خمسة عشر يوماً وأنا أعيشُ وحيدةً. أكثر من خمسة عشر يوماً لم أَنَمْ فيها تقريباً. أكثر من خمسة عشر يوماً غارقاً في خوض العديد من المواجهات ضد فظاعات الجزائر. وفي محاولة الهروب من كلّ شيء من خلال العمل. وفي الرغبة في تحويل الكلمات إلى شظايا. وفي ذهولي من إفلاس الكلمات. فهي لا تستطيعُ أن تَرُدَّ، بشكل كلّيّ، الهَلَعَ ولا الألَم. خَدَّايَ مُقَعَّرَان.

بدأ يَتساقَطُ شَعَرُ رأسي. وَأدّى بِيَ الأمرُ إلى فقدان ما بين سبعة وثمانية كيلوغرامات.

أَلْقَيتُ نظرةً مذعورةً نحو رُزْمة الجرائد التي اشتريتُهَا في طريقي. في هذا المساء، لا أُحِسُّ بالشجاعة- الغضب الشديد؟- لمواجهة كلّ هذه الخرابات. ومثل مُسَرْنِمَة، أتيه، لِلَحظات، في منزلي. ثم أتوجّه لإحضار بَطّانيّة لأتمدَّدَ، جَفِلَةً، على أَريكَة في مواجهة المدفأة.

أعشق هذه البطّانيات المصنوعة من «الموهير» للمفارقة بين الحرارة التي تُوَفِّرُها وبين خِفَّتِهَا، وكذلك الصور اللونية التي توحي بها. انعدام ثِقَل مناسبٌ للراحة.

أغفيتُ متكوِّرةً في هذا الشيء الرقيق، يُهدهدني دويّ النار. لا بدّ أنني نمت ساعتين دفعة واحدة. وهو شيءٌ نادرٌ. فأنا لا أستطيع أن أستغرق في النوم بهذا الشكل إلاّ بعد مُنَاوَبَة ليلية متعبة. حين يقومُ مريضٌ خضع لعملية زراعة عضو من الأعضاء، أو مريضٌ ما في حالة خَطَر، بإبقائي يقِظةً طوال الليل. حينها لا أُحصي الساعات التي أقضيها في الصراع، من أجل الحياة، بجانبهم. ثمّ حين أعود إلى بيتي أُحِسّ كما لو أنّ جسمي ظلّ في تلك الأَسِرَّة المُعرَّضَة للخطر. في حمّى المرضى وفي عَرَقِهِم وفي التواءاتهم وفي نقاهتهم. في صِراعات الأَمَل والإرادة والمعرفة، مع آلات ومع حَقْنٍ مُتواصل ومع روائح المعاناة والأنين.

قدّمت للزميل الذي أتى لِيَحُلَّ مَحَلّي، تقريراً عما قمتُ بِهِ. وحين يأخذ زميلي مكاني، بعد نقاشات، لا يتَوَصَّل ذهني إلى الانفصال عنها بصفة نِهائيّة. في حالة البلاهة الناتجة عن التَّعَب وعن

الحاجة إلى النوم، يطفو القَلَقُ إزاء موضوعِ مريضٍ مَا. الشعورُ بالفَشَل، الذي يكون أحياناً لاذِعاً، بخصوص مريضٍ آخَر. الارتياح، الذي يحدث في كثير من الأحيان لحسن الحظّ، لإخراج البعض من المرضى من منطقة الخطر.

لا تُداعِبُنِي أبداً، رغم ما يعانونه ورغم الطريقة القاسية التي أُعامِلُهم بها، فكرة أن جسدي ورأسي يمكنهما أن يُعْلِنَا، هما أيضاً، عن رغبتهما في عناية تماثل عناية الطبيب لِمَرْضَاهُ.

في هذه الظروف، وحتى في حالة الخَبَل التامّ، فأنا لا أستسلم للنوم. السريرُ سيكون أحسنَ طريقة لتأجيل النوم. أَتَسَاقَطُ على أريكة. في فصل الشّتاء، تحت لِحَاف زغبٍ، مُقَابِلَ المدفأة. كأس ماء على مقربة منّي. كتابٌ في يدي. القراءة تُبعِدُ الانشغالات. أنا لا أستطيع أن أنامَ إلاّ مع حياة الآخَرين. في حياة أخرى.

أَتَكوَّر على ظهري، وأكتشف أنّ الصالونَ كان مُضاءً بوَمضات المدفأة. صوت اللهيب المعتدل يحيطُ خمولي بِعنايَتِهِ. أُفكِّرُ من جديد في فرقعات المدفأة، هناكَ، وفي أضواء ليالي الطفولة الشبحيّة.

أَدُورُ على جنبي، وأثبت النظر في النار. كم تمنيّتُ لو أنَّ لُعبَةَ اللهيب تسبب لي النعاس، وتَحْمِلُني من جديد نحو النوم. قضيّة خاسرة. أُعَدِّدُ مَحَاسِن المدفأة. إنها منحوتةٌ من حديد صبّ أسود. ولها هيأةُ قَارَبٍ. ومع تداعي أفكاري يذهب تفكيري إلى القارَب الذي أبحَرْتُ فيه كلَّ صيف. ويدعى «ريح الرّمل». والآن، هو في مِلْكية صاحبي. وأنا مدينةٌ له في اكتشاف البحر عبر قارب شراعيّ.

وهو قائد القارَب. وأنا لم أكن سوى المُسَاعِد. ولكنّ اسم القارب، ريح الرَّمل، يعود إليَّ، بطبيعة الحال. لقد ساعدني هذا القارب على كتابة الصحراء في أعالي البحار خلال سنوات. كيف سأعيشُ الصيّف بِدُونِه؟ بدون سرير البحر؟ كيف سوف أستطيعُ مواصلة تملّك الصحراء الآن؟

«لا تكوني منافقةً، فالقارَبُ ليس هو أقسى ما يُفْتَقَدُ. كيف تعيشين دون «جون-لويس»؟ - بألم، ألم شديد. - كم من مدة سيستغرقُهَا هذا الاحتضار؟ - لستُ أدرِي.»

هناك

جالسة على فراش جدتي، مائدة واطئة أمامي، أرسم ثانية، على وميض المسرجة الحروف التي تعلّمتها في المدرسة. مجال نَوْم جدتي يحفظني من صخب ومن توثُّبَات إخواني الصغار الذين قَلَبُوا المِحْبَرة العديدَ من المرّات على دفتري، حين أبدأ، دونما انتباه، في إعداد تماريني في مكان آخَر. هُمْ يستطيعون التّطَفّل على كلّ الأَسِرَّة الحقيرة، ويتشقلَبُون عليها بِتَنَافُس إلى أن يَقْلِبَهُم التعب. ولكن يُمنَع عليهم بتاتاً أن يلطّخوا هذا السرير بخطواتهم. إنه الاحترام والتبجيل الذي يَدِينُون بِهِ لِصَلَوَات جدّتهم، تجنُّب توسيخ ثيابها ومكان نومها.

أَنْكَبّ على رسم الخطوط الممتلئة والدقيقة، وأتلفّظ الحُروفَ، من حين لآخَر، بصوت عالٍ، وأُواصِلُ ترديدَ رنّاتها، بلا انقطاع، في رأسي كي لا أجذب لنفسي السّخرية، وأَحْلُمُ على بصمات نشّافتي فترة طويلة. أحياناً تُلقِي عليَّ أُمّي نظرةً فيها نفادُ صبرٍ. فَكَمْ هي بحاجة ماسّة إلى من يُساعِدُها. وتملّصي طويلٌ جداً. أما أنا، فأُحسّ بالانتشاء وأنا أتامل بإعجاب الكِتَاب المفتوح، والدفتر الذي أنسخ عليه. تجتاحني نشوةٌ عند هذا الاكتشاف غير المنتظَر، وهو أنّ

كِتابي ودفتري عصيّان على فهم وإدراك أُمّي. فضاءان لا يمكن عبورهما، يَدَعَان أمي على مسافة. وأما جدّتي فتقوم بدور الرّصد.

إنّه، تحديداً، إخلاصُ هذه المرأة الحاكية، ذاكرة ثقافة شفهية، من يحمي ويرعى مجهوداتي الأولى في امتلاك كِتَابة الفرنسيّ **الكافر**. غير أن هذا التعطّشَ للتعلُّم يخلّصني منها أيضاً. جدتي التي تحتاج كثيراً إلى نقل ذاكرة الرُّحَّل المُهَدَّدَة. ذاكرة شعب في طريق الانقراض: «إنّ استقرارَ الذين كانوا رُحَّلاً، هو الموتُ الذي بدأ يستبِدُّ بِقَدَمَيَّ. وأما، الآن، فأنا لا أملكُ سوى سفر الكلمات...» فهل المشهد الذي يمنحه منظري وأنا أتعلم يجعلها تَغْرَقُ، أيضاً، في أحلام أخرى وتغرق في آفاق أخرى كانت إلى حدّ الساعة بعيدة عن أية شبهة؟ ليس لي وعْيٌ بهذا، لحدّ الساعة. إنّ الإحساس بالكبرياء لارتقائي إلى مركز راقٍ كتلميذة، يملأ جسدي ويُبعد عنّي كُلَّ شُعورٍ بالذنب. في هذا الطَّرَف من الصّحراء، لا نتجاوز اثنتَي عشرة جزائريّة في المدرسة الفرنسية. ولكنّ المَنْفَذَ إلى لغة «المُتَحَضِّرين» هي آخِرُ ما يشغل بالي. إنّ المُعجِزَةَ، التي جعلَتْنِي أتَوَاجَد هنا منحنيةً على صفحة دفتر والريشة في قلمي، أنا الفتاةُ، هي التي رَفَعَتْنِي إلى الأوج. تتوقف عيناي عند أطراف الصفحة البيضاء، عند عتبة عالَم ما زال مجهولاً والذي أخترع فيه لنفسي تخييلي الشخصي. إنّ هذه الدفاتِرَ الأولى وهذه الكتب الأولى هي التي رفعتني في مقامات الكرامة. النّداءات إلى المقاومة الجزائريّة التي يَتِمُّ الهمسُ بها في الراديو، والتي تجد لها صدًى لدى أبي وعمّي المُتَحَمِّسَيْن، تُهيِّجُ نفسي. في الليل أتخيّلُنِي، أحياناً، تاركة كلمةً ما على سريري كي ألتحِقَ بالمقاومة. بينما تُرَدِّدُ مُدَرِّسَتِي، في النهار،

وبشكل كبير، إنَّ معركَةَ التعليم تُمثِّل أكبرَ معركة بالنسبة لي... القلب يخفق في كل لحظة من اللحظات، هذه المغامرة ما زالت غامضة لأنها متفرّدة. أُفَكّر في الحرب، في الإذلال الذي أُشاهِدُه وأنا متوجهةٌ إلى المدرسة. أحلمُ باستقلال بلادي، وبالحرية الجماعية. مثل كل الناس. ولكنّ نضالي في المدرسة، وتعطّشي إلى التعليم هما اللذان يبنياني من دون عِلْمي.

أحياناً حين أرفع رأسي، أتَفَاجَأُ بالنظرة المُتَأَمِّلَة لجدّتي وهي تُتابِعُ حركاتي. تبتسم لي، وبحجّة إبعاد لَعِب الأولاد المُشَاغِب عنّي، زيادةً، تبذلُ قصارى جهدها في إغوائهم وفي شدّ انتباههم بِمَحْكِيَاتِهَا. الضحكات والشجارات والمشاحنات الأخرى لا تتأخر، أبداً، في صرفهم عنها، وفي نقل زمرتهم إلى الغرفة. أنا جمهورُ جدتي المفضَّلُ. أعرف هذا.

حِين يُغلِقُ اللَّيْلُ، أخيراً، صمتَهُ على المنزل، يَصِلُنِي صوتُ أُمّي من الغرفة الوحيدة ممتزجاً، أحياناً، بِنَبراتٍ غاضبة، ومحرِّكة للعواطف، أحياناً أخرى. أَتَخَيَّلُهَا تَتَصَدَّى لِحَوْمة الأطفال النَّائِمِين بِشَكلٍ مُختَلِطٍ، تحرّك الأجساد لِتَمديدِهَا الواحدة بجانب الأخرى مثل سردينات في علبة. أُحِسُّ بالفرح لكوني أَفْلَتُّ من هذا النظام، ومن هذه التسوية للجسم العائليّ. شيءٌ مُشَابِهٌ مع ما أَبْصَرْتُهُ منذ أيّام يعود إلى ذهني، وهو انهماكُ أُمّي في كيّ الملابس. مِكْوَاتَان كبيرتان موضوعتان على الكانون، وغسيلٌ مُبلَّلٌ، والصفيرُ والأبْخِرَة على اللِّباس المضغوط... خمَّنْتُ: إنّ هذا هو النوم. الكُلُّ مُبَلَّلٌ بالبول، والكُلُّ متصلِّبٌ تحت أغطية يُخَال أنّها من حديد! رائحة

الرّشح[4] زِيَادَةٌ. أَرَقِي يأتي، في جانِبٍ منه، من هنا. إنّهُ (أي الأَرَقُ)، في المقام الأول، مُقاومةٌ غَريزيّةٌ للغفوة التي تُحَوِّلُ الأفرادَ إلى مجموع عديم الشَّكل. رغم تحذيرات جَدَّتِي - لا تَخْرُجِي، فالجنود المِظَلّيون. . . . أنهض في كثير من الأحيان، أثناءَ اللَّيل، وأتمشَّى على أصابع رِجْلَيَّ، أَضَعُ نفسي على عَتَبَة الغرفة التي يَنَامُ فيها باقي العائلة أنظر إليهم. الأَرَقُ وعُزلة الليل يُعطيان، إذاً، سعادةً لا مثيلَ لَهَا. أَطِيرُ بعيداً عن كلّ إكراه. الخوف من الظلام يزيد من مُتْعَتي.

أحلام يَقَظَتِي تجذب جدّتي، فتنهض، وتقتربُ وتلقي نظرةً فضوليّة على صفحاتي المُسْوَدَّة. أتخلّص من كيس نومها، وأُنَظِّم محفظتي، وأعود لأستلقي بجانبها. في البداية تبدأُ في الهمس بكلمات مُتَرَدِّدَة، كما لو كانت مرعوبةً، قبل أن تَسْتَرِدَّ اللِّسَانَ الطّليق لِفَضاءَاتِهَا. الليلُ بالنسبة لها وبالنسبة لي لا حدودَ لَهُ.

(4) الرشح: إفراز دهني في جلود الغنم يلين الصوف.

هُنَا

بعد ظهيرة يوم السبت، أُفَكِّكُ السريرَ، أُخرِجُهُ من غرفتي، أفككه وأَفصِل الألواح الخشبيّة، أهجم عليها بالفأس. تَتَكَسَّرُ الألواحُ الخشبيّة بصوت يشبه تكسر العظام. لا تنتابني فرحةٌ انتقاميةٌ ولا حزن. كان الشقاء ماثِلاً في اتخاذ هذا القرار، منذ عدة أيام: «تَحَرَّكي. تَخَلَّصِي من هذا السرير. حَوِّلِيهِ إلى أخشابٍ صغيرة لِتُوقِدي بها النَّارَ. أعيدي تركيب منزلكِ بطريقة أخرى.» الرَّأْسُ فارِغَةٌ، فأنصاعُ للأَمر. وفي الوقت الذي كنتُ فيه منهمكةً في جمع كومة الحَطب، انزرعتْ شظيّة ما بين ظُفْر وأُنْمُلَة سَبَّابَتِي. صرفْتُ كثيراً من الوقت من أجل استخراجِهَا. ثم توجهتُ لِشِراء سريرٍ آخَر. أحتاجُ إلى سرير كبير كي أُحِسَّ فيه بأنّني وحيدةٌ. من أجل محو الغياب. زيادة المساحة من أجل التقاط وِخداع قليلٍ من النّوم. الاحتفاظ بمكان، حتى ولو أستلقي فيه عَرْضاً، هو ابتهالُ المُعْتَزِل. بعد دورةٍ من التنقُّل بين المَتَاجِر، قمتُ باختيار سريرٍ جميلٍ. الرأسُ والرِّجْلان ترتفع. الفِراشُ سميكٌ ومن النوع الجيّد. ثمّ كرّستُ وقتاً ثميناً للتزود بِشَراشِف جديدة وفراش من ريش وأغطية سرير مناسبة للسرير، وَوَسَائِد. . . تغيير، تغيير كلّ شيء. واشتريتُ لنفسي

قميص ليل مُثير، أنا التي لا تستطيع أن تنام إلاّ عارية.

عند عودتي إلى بيتي، أخذتُ في الاعتبار، أخيراً، السبّابة المجروحة بِشَظيّةٍ التي لا تتوقف عن إزعاجي بِوَخزَات قلبٍ مُصَابٍ.

كرّستُ الأمسية لِطلي غرفتي. وسيكون لديّ الوقت لتمرير طبقة طِلاَء جديدة قبل أن أتسلّم السريرَ. إنّ تهييء هذا العشّ الجديد سيتيح لي أن أعود شيئاً مَا إلى نفسي، وفي مواجهة العزلة انطلاقاً من مَهْدٍ على مَقَاسِي، وتَذَكُّر عُزْلاَت الماضي. الفتح الأوّل الذي أَتَتْ به الكُتُبُ. فبِمُجرّد أن ألتقط كتاباً حتى أصير في مكان آخَر. لقد كان الكِتَابُ أَوّلَ فضاء لي يستحيل اقتحامُه. فلا أبي ولا أمي يعرفان القراءة. إذاً فلم يكونا يستطيعان أن يُرَاقِبَا ما كنتُ أستخلصه من شرنقة الورقة. حين لم أكن أتشاجَر معهما حول حرية أخرى، كنتُ أَضَعُ بيني وبينهم صمتَ القراءةِ الهدّامَ. كنتُ وحيدةً مع كُتُب الآخَرين. وسأكون أكثرَ عزلةً مع كتبي. كان الحبُّ قد أتى لِيَتَكَوَّرَ في هذا العناق ليُجمِّلَهَا ويسندها. الحبُّ هِبَةٌ عرفتُ، دائماً، كيف أهرُبُ منها. حين تُلَطِّخُهُ كثيرٌ من الهُمُوم. حين يُهَدِّد بالانحراف نحو سجن الإصلاح. إنها طريقتي في المحافَظَة على حُلْمِه. إنّ الانتظارَ الدائم للأفضل هو مُعانَدة نفسي على البقاء حيّةً في وجه الإفلاسات كما في وجه الكَوارِث.

الحُبُّ هو اللانهائيُّ الموضوع في مُتَنَاوَل الكلاب. دون شكّ، سيدي «سيلين»[5]، لأننا نحسّ بالحبّ، بشكل أكثر، حين نفقده.

(5) سيلين: سفر في آخِر الليل.

التحقتُ، من جديد، بغرفتي. وقبل أن أذهب للنوم، تفحّصتُ وجهي في المرآة. قَسَمَاتِي لها هذا التعبير المُنَفِّر، وشَفَتَايَ لهما هذه الابتسامة الكيماويّة التي أعرفها جيداً من فرط ما أبصرتهما لدى مَرْضَاي الذين يستخدمون مُضَادّات الانهيارات العصبيّة. قِنَاعُ البلاهَة... أنا مُتَمَدِّدَةٌ في الفِراش الرّيشيّ، ولا أكتبُ. أَرْكنُ إلى سريري الجديد. أَفْكَارِي تَتَجَوّلُ بِهُدوءٍ مُصْطَنَع. أُفَكِّرُ، من جديد، في حديثي مع صديقي الدكتور «شونغ» قبل أسبوع. كانت السّاعةُ تُقارِبُ الواحدة بعد الظهيرة حين هَاتَفَنِي في عيادتي كي يتحدث معي عن مريضٍ كنتُ قد بعثتُ به إليه من أجل إجراء الفحوص. أشعرُ بكثير من التعاطف والتقدير تجاه هذا الرَّجُل، ابن مُهاجِرَيْن صينيين، والذي وُلِد في «تاهيتي»، وأصبح اختصاصياً بأمراض الكُلى. وهو رجلٌ ذكيٌّ ورزينٌ. لقد تَعلَّمْتُ منه الشيءَ الكثيرَ. وهو الذي علّمني تقنياتٍ متعددةً عن الميز[6] ومعايير زرع الكلْيَة، وكذلك متابعة المرضى الذين خضعوا لعمليات زرع. حين عبَّر عن قلقه من أخبار «جون-لويس»، انفجَرْتُ باكيةً دون أن أستطيع إيقاف سيل الدموع التي كَبَتُّهَا لفترة طويلة. «لم تتحَدَّثِي بهذا حتى لـ«ماتيلد»!» نعم، حتى صديقتي الحميمة لا تعرف الخبر لحد الآن. صحيح أنّ «ماتيلد» تغيّبتْ عدة أيام، وهو على عِلْمٍ بهذا، وقبل أن يضع سماعة الهاتف، قال: «انتظِرِيني، أنا آتٍ.»

وقد ازداد هَلَعُ «شونغ» وهو يكتشفُ ضُمورَ جسدي، ووجهي المُقَعَّر، وعينَيَّ المتوجِّعَتَين. وخَلْفَ عَدَسَتَيْ نظّارَتَيْه السميكتين،

(6) الميز: فصل المواد شبه الغروية عن المواد الأخرى القابلة للذوبان وذلك باستخدام غشاء فارز.

أَصْدَرَتْ نظرتُهُ حكماً على حجم الخسائر، وقامت بِقياسها. كُنّا جالِسَيْن حول طاولة في مطعم مجاور حيث ذهب بي، فكشفتُ عن عدم قدرتي على الأكل بالرغم من كل العزم الذي بذلتُهُ من أجل إرضائه. لم أفعلْ شيئاً سوى الكلام مازِجةً بين كلمات قطيعتي مع «جون-لويس» وكلمات عن الخراب في الجزائر.

العلامة الوحيدة عن ارتباك وغضب صديقي، هي هذه الحركةُ التي جَعَلَتْهُ يرفعُ نظّارَتَيْه فوق أنفه. قضيتُ زمناً طويلاً في تفكيك الدلالة لدى هذا الكائن الوديع. والآن، أَرْصُدُهُ كي أتتبَّعَ تَقَدُّمَ تفكيرِهِ. وبعد أن استمع إليَّ طويلاً، انتهى الأمرُ بـ«شونغ» إلى أن يُعنّفني قائلاً: «أنتِ طبيبةٌ! وتعرِفين ماذا يُدعى الذي أنتِ بصدد فِعْلِهِ! يجبُ أن تكوني على عِلم!»

بعد توديعِهِ التحقتُ بعيادتي، وفيها كتبتُ لنفسي وصفة لدواء مضادّ للانهيارات العصبية. اشتريتُهُ، والتهمته حالاً. ثمّ ، هاتفتُ «ماتيلد»، والتَحَقَتْ بي. قضينا الأمسية معاً. ومن حينها نزعتُ سمّاعة الهاتف.

أتمدَّدُ تحت الفراش الرّيشيّ، أتنشّق الشراشف الخالية من كلّ تذكار، وأُحِسّ تحت وِرْكِي السُنْدُس الذي كان ما يزال مُنَشًّى للقماش، وأَستَمْتِعُ بالمساحة الشاغرة بالقرب منّي. حَرصتُ على تسخين رِجْلَيَّ تحت ماء الرشّاش قبل أن أَهْرَعَ إلى السرير. ومرّتْ ساعات قبل أن تستعيد رِجْلاَيَ الدِّفْءَ الضروريَّ لارتخاءِ الجسد، مُؤَخِّرَةً، لفترة طويلة، حلول لحظة النّوم. في الماضي، كُنتُ أَضَعُ رِجْلَيَّ بين فَخِذَيْ صاحِبِي. كان هذا أفضلَ عِلاجٍ لهذا الإحساس

الممقوت لأَصَابِعِ القَدَم الباردة. الآن، لا أَخْرُجُ، قطّ، من الرشّاش قبل أن يبدأ انفراجُ أصابعِ قدميّ. أُسْرِعُ لتجفيف جسدي، وأرتدي قميص البيجامة الذي سخَّنَهُ جهازُ التدفئة قبل أن أقفز إلى السرير. وحيت تَصِلُ دَرَجةُ حرارة الشَّراشِف، أخيراً، إلى مستوى درجةِ حرارةِ جسدي أقوم بنزع ثوبي، وأقْذِفُ به على السرير، وأستسلمُ لاختبار جلدي ومَفَاصِلِي الحُرَّة في هذا السّرير الناعم. السرير الكبير يُخْفي الذُّعْرَ نفسَه الذي يوجد في الجوّ الخانق لفِرَاش الطفولة المصنوع من القَشّ. أكتشفُ، من جديد، ألفَ ترتيب بسيط مع السرير بالنسبة للمحرومين من الحبّ.

هكذا، لم يحدث لي، وهذا من زمن بعيد، أن أبسُط نهاراتي انطلاقاً من سريري. وهذه فاتحة جيّدة لِتَنَاوُل الكتاب الموضوع هنا، مفتوحاً، على الوسادة. إنّ تعرية التوتُّرَات يجعلُ كلمات الآخَرين واللغَة التائهة للقراءة على طرقات الأَرَق متاحة. إنّ الكُتُب هي أَسِرَّتي الواقِفَة بيني وبين العالَم، عَوَالِم تنامُ فيها الكلماتُ على ضفاف اللانهائيّ.

هناك

ليالي الصيف تلقي بكلّ الناس إلى فناء المنزل. لا نستطيع أن ننام في الخارج وأمام المنزل بسبب تواجد المظليين... مُتْعة هذا الفصل الوحيدةُ هي هذا الحقلُ المُدْهِش للنُّجوم التي توجد فَوْق رُؤوسِنَا. السماوات المُرَصَّعَة بِالنُّجوم في الصحراء فريدةٌ من نوعها. منظَرُهَا يأخُذُ بمجامع القلب ويُهدِّئُهَا ويُعيدُ للصّحراء سُلطَتَهَا الحُلْمِيَّة. الفضاء الوحيد الذي يستطيع العقل ارتيادَهُ والذي تَقُوم شروطُ الحياة القصوى بترقيقه وتصفيحه، والذي يُغلقه عُرْيُ اللانهائيات في البؤس.

خلال النهار يصعقُ الضوءُ في حرارة تتجاوز خمسين درجة في الظِلِّ. سعيرُ النار يُحرِقُ كلَّ شيء، ويُحَوِّل الصحارى الحوضية والأراضي اللينية الواسعة الحصويّة والتخييل إلى أماكن لحرق النباتات من أجل استصلاحها وتخصيبها. وتحوّل الامتدادات الشاسعة وسماواتها إلى عَالَم سُجُونٍ. وفي بداية المساء، يتوجب رَشُّ الأرض المحروقة في الفَناء، مرّات عديدة، من أجل محاولة ترطيب الهواء الجامد بين الحيطان قليلاً.

ما إن انتهت السنة الدراسية حتى غادرت رفيقاتي الفرنسيات.

بعضهنّ إلى فرنسا، والبعض الآخَر إلى شمال البلاد. أما نحن، فليس بمستطاعنا ولا في عاداتنا التخلّص من هذا الجحيم. جحيمٌ يمتدّ من شهر مايو إلى شهر أكتوبر. سِتّة أشهر من فترة عذاب مُطَهِّر. انعِزالُ بَيْتِنَا، البعيد عن القرية بما يُنَاهِزُ الكيلومتر الواحد، وكذلك الممنوعات التي تُلاحِق الفتيات هي الإطارُ الدائِمُ. ولكني كنت أَمْتَلِكُ ملاذي الوَرَقِيّ، القِرَاءة.

ممدَّدَةً على فِراشي، وكِتَابٌ في يدي، أقرأ على ضوء شَمْعة في الفِنَاء. فِراشي يوجد في أقصى أفْرِشَة الآخَرين. إخواني وإخواتي يَغِطُّون في النوم. جدّتي جالسةٌ، بالقرب منّي، منهمكة في تحريك حبّات سُبحتها في صمتٍ. تنتابني الشكوك في كونها تحلم أو أنها تَجْتَرُّ كلماتها المترحِّلَة بدل أن تَسْتَغْرِقَ في الدعاء. أَلَيْس الحُلْمُ صلاة هو كذلك؟ صلاة كي تبقى الكلمات، على الأقلّ، مُتَرَحِّلَةً؟ عَيْنَا جدّتي شاردتان في مُعظم الأحيان. حين تكونُ جدّتي على هاته الحالة، أقولُ في نفسي إنها ذهبت أسْرَعَ من مدى سرعة كلماتها. إلى ما هو أَبْعَدَ من حُدودِهَا؟ لا أعرف كثيراً. الإغواء الذي يُمَارِسُه عليها النَّظَرُ يُعلّمني أن أُحاوِل سبر أغوار نَظَرِهَا. هي، امرأةُ المَشْي- مَنْ يَرَ خطواتها يعتقد أنّها أرنبُ سِبَاق مُنْطَلِقٍ- قَالَتْ لي ذات يوم: «الأقدامُ تستطيع الجري، وتستطيع كلّ تُربينات العالَم أن تَهْدِرَ، والعُيونُ تَذهب، دائماً، إلى ما هو أقصى وأبْعَدَ.» من حينها وأنا أعتقد أنّ جوهرَ حياةِ الرُّحَّلِ لا يمكن اختصارُه في قصة مسيرٍ خلفَ قَطيعٍ، أو قصة ذهابٍ وعودة بحثاً عن الماء. إنّ حياة الرُّحَّل هي امبراطورية النَّظَرَات التي تفترِسُ الأفق. هي عَقْدُ العيونِ مع الأقاصي التي تَجُرّ الأرْجُل والحيوات في أثَرِهَا. قالتْ جدتي

صارخةً، مرّة أخرى: «الصَّحَارى بحارٌ واسِعة، والثبات والجمود على شطآنها مُجَرَّدُ هرطقة!» الكوعان على الرُّكْبَتَيْن، الذَّقَنُ في إحدى اليدين، أُمْعِنُ النَّظَر في الأُفُق. أُمَيِّزُ، إذًا، في ارتداداته تَنْمِيلاتِ عيون كلّ أجيال الرُّحَّل الذين ثقبوه وعرفوا سرّه. أُحِسُّ بِنِداءاتهم لدى العبور. إنّ هذا التركيز، هذه الحِدَّةُ في النظرات التي تُوَلِّدُ كثافةَ هذا الازرقاق، شظاياهُ ساطعة. الكَشْفُ يسحرني. كان الأُفُقُ فارغاً من قبلُ، بِشكلٍ يدعو إلى اليأس. سريرٌ من أجل إلهٍ غائبٍ.

أبي وعمّي يُمْضِيَان السَّهْرَة في الخارج، أمام البيت. تحت نور المصباح الكهربائيّ الوحيد-في البداية وَصَلَتْنَا الكهرباءُ بتقتير(مع ذلك)- الذي يَتَهَدَّلُ في عَتَبَة المطْبَخ، أُمّي تَلْتَصِقُ بآلة الخِيَاطة «سنجر». رِجْلاهَا تَجُرَّانِ الدَوَّاسَة، تَتَحَكَّمُ في إيقاع دورة العَجَلة، التي تضرب الإبرة بطريقة هستيرية على القُمَاش. طريقَتُها التي تَتَحَرَّكُ باستمرار، تُشْبِهُ دجاجةً في أوج اهتياجها. أَرْفَعُ رأسي، أحياناً، وأتفحَّصُ وجهَ أُمّي المُنْحني على عملها. وَجهُهَا الزَّاهِي، قليلاً، الذي تُبْرِزُهُ، حين تُحِسُّ أنها موضع مراقبةٍ، متأهِّبَةً للابتسام. أُمّي العَامِلة شديدة الاعتزاز بالنشاط والإعانة الماليّة التي تُدِرُّ عليها هذه الأُعجُوبَةُ التي تُزيِّنُ «سنجر». انتقامٌ كبيرٌ من خُطَبِ حَمَاتِهَا بِشكلٍ خاصّ.

تَنُّورَةٌ مَثْنِيَّةٌ وكذلك صِدارُها[7]، ثوبان تمّ شِراؤُهُمَا في المَتَاجِر الفرنسيّة في المدينة المُجَاوِرَة، وهما هدية من عمّة كَريمَةٍ ومُلْهَمة،

(7) الجزء الأعلى من فستان المرأة.

تُنقِذَاني، لحسن الحظّ، من فولكلورية التَنُّورات التي تصنعها أُمّي بكلّ فيضانات التَعَرُّجاتِ المتعدّدةِ الألوان. كانت هذه التنورات التي تصنعها أُمّي ستجعلني، بشكل أكبر، محطّ السخرية في المدرسة. البِذْلات التي تصنعها أُمّي، لا ألبسها إلاّ في البيت. كي لا أُوَسِّخَ البدلات الأخرى. بذْلات النّوم تَرَفٌ لن يأتي إلاّ في وقتٍ متأخّر، فَبِذْلَة النّوم لم تكن تُشَكِّل، بعدُ، جزءاً من طقوس النوم. وفي المقابل، هذه الأشياء التمهيدية للمشْق تُشكِّلُ جزءًا منه، وهو عذابٌ يَتَوَجَّب على الفتيات ذوات الشَّعَر المُتَجَعِّد أن يَخْضَعْنَ له. ويتعلّق الأمرُ بإدخال وكَبْس الشَّعَر الكثيف في ضفيرة عشيّةَ مُنَاسَبَةٍ مُهِمّة، كي يكون الشَّعَرُ صقيلاً في اليوم التالي. الشدّ إلى الخلف، وتصلّب الضمادة يجذِبُ فروة الرأس إلى درجة أنّ الألَم يُعطيني الانطباعَ بأنني أتعرّضُ لعمليّة سَلْخ جلدة الرأس. ثمّ إننا إذا لم نأخذ حذرَنا فإنّ هذا الشيءَ يعطي إحساساً بأنه قد يخلع فقرة من فقرات الظهر حين نتقلّب على فِراش القشّ. هذا الشيء يُرغمني على حركات متكلّفة من أجل العثور على الوضعيّة الأقلّ إزعاجاً. وحين لا أستطيع، ينتهي بيّ الأمرُ إلى التخلّص من كلّ شيء. الاستشهاد من أجل الاستشهاد، أُفَضّل مواجهةَ غضب أُمّي في الصباح. فتقوم بالانتقام مني في المساء التالي بشدّ شَعَري الأشعث بقوة أكثر. يجب أن أكون جميلةً ونظيفة من أجل الذهاب إلى مدرسة الفرنسيين. وأن أكون جميلة معناه أن أكون بيضاءَ وسمينة ويكون شَعر رأسي مُنتَصِباً، بينما أنا نحيلةٌ وسمراء البشرة ومُجعَّدَة. الفضلُ الوحيد للعُطَل المدرسية هو اقتصارُ هذه البلوى على مناسبات نادرة، إجمالاً.

لا أتوَفَّرُ على كثير من الكتب. ومع ذلك فأنا أُعيدُ قراءة الكتب التي عندي وأكتشف دائماً كلمات جديدة. كلّ عملية وصف، وكل بورتريه يُصبح مادّةً لِساعات من الاختراع. لأنّ هذه الكتب تحكي لي عن عَوَالِمَ غريبة بشكل كامل. عوالم لا تَستطيع، حتّى عينا جدتي، أن تَصِلَهَا ولا أن تكْتَشِفَهَا. ولهذا السبب، دونما شكّ، فإنّ نَظَرَها أصبح غائماً. وبين جدتي وبين كتبي، أنا أهذي على كلمات. أحلمُ بِبِحَار، وبجداول في مَرَاعِي قراءاتي. الكلمات تمتلك ألواناً مجهولةً. أتمشّى كل ليلة في أقطارها الغريبة.

قبل العطلة المدرسية حضنتُ حِقدي في سريري ليال عدة متتالية. كنتُ الأولى في القسم الدراسي، وكنتُ فخورةً جداً بأن أُرِي نقّاطي لأبي. هذه الأرقام يَعْرِف أبي قراءتَها. كانت له هيأةُ جَمَلٍ متساهل، أَبْعَدَ دفتري من مجال رؤيته وقال بشفقة: «لا داعٍ لهذا التعب، فأنتِ لستِ ولداً يا ابنتي!» أحسستُ كلَّ جسدي يَتَصَلَّبُ ويتهيّجُ. كان نظري أسودَ، اجتررتُ في رأسي هذه الفكرة: «سوف ترى، سوف ترى!» ولكني ظللتُ صامتةً من الشقاء. وأنا أستلقي على فراشي، كنتُ أخترع لنفسي، كلَّ مساء، حياةً قادرة على سحق هذا الازدراء، وأصر على حصولي على حقّ الوجود بشكل كاملٍ، إن لم أحصل على الإعجاب.

حين يتوقفُ صوتُ آلة الخياطة، أخيراً، وحين يتَمَكَّنُ النوم، أيضاً، من إنهاكِ الأفراد البالغين المستَلقين على أَسِرَّتِهِم الحقيرة، أتّكئُ على منكب وأقذِفُهم بنظرات دائرية. الحرارةُ تُدمِّر الجسم

العائليّ وتُبَعْثِر الأفرشة وتحرِّرُ كلَّ واحد من شَرَك الأعضاء الآخَرين مثلما يُحرِّرُ النومَ من توتّرات النهار. والحرارة تُحَرِّرُ، بشكل خاصّ، من غطَاء الصندوق أكثر مِمَّا تُحَرِّرُ من الغطاء أو البطانية. إننا لا نستطيع أن نتحمَّلَ حتّى الشَّراشِف في مثل هذه الحرارة.

أقوم بتحليل المواقف. البعض يُتَمْتِمُ. البعض الآخَر يَشْخَر. هنا، يَتَسَارَعُ تَنَفُّسٌ مَا قبل أن يَجِد الهدوء، دون أن يكشِفَ عن لُغزِهِ. في جانبٍ ما، ضحكة صغيرة، تنهيدةٌ أو صرْخة تمزِّقُ سِرَّ الليل الكبيرَ. ومن هناك، ينطَلِق وَابِلٌ من الضَّرَاط... هذه الحرية، وهذا التنوع المكشوفُ للوضعيات وللإيماءات ينفي الفِكرةَ المتماثِلَة التي أُكوّنها عن النوم، وتُعيدُ للكائنات تَفرُّدَهُا. هذا يُسلِّيني ويُقَوِّيني. أَشْرَعُ في وضع أحلام عن أحلام كُلِّ واحِدٍ، وفي إخراجِهَا من مَكامِنِهَا. النّائمون يُرسلون لي صورةَ نسيانٍ وهشاشةٍ ولُغْزٍ متشابِكَة تتركني حائرة ومترددة. مستسلمين لِلَيْلَة الصيف، حتى الأفراد البالغون يكشفون عن وُجُوهِ أطفالٍ مُذهِلين. أعشقهم في هذا النوم الحُرّ في القيظ. هذا الاكتشاف يُثِيرُ مَشَاعِرِي. كنتُ أعتقِدُني غيرَ قادِرَةٍ على هذا، على الحُبِّ. نعم، أنا فتاة شرّيرةٌ، ولكنّي عاطفيّةٌ.

أَشْرَبُ من الغَرَّافَة الموضوعة بجانبي وأُوَاصِلُ قِرَاءَتِي إلى أن تشرَعَ الكَلِمَاتُ في الغمز وفي الامتزاج بالنُّجوم.

هنا

كان يمكننا أن نَعْرِفَ، ومنذ حَوّاء، ما إذا كان لسرير جديد، وكبير حتى، أن يُنقِذَ من غياب الآخَر. يُلقي ضوءًا عليه ويُرَكِّزُ حكماً مُخَرَّباً. سريرٌ واسعٌ لامرأة صغيرة مستلقية في جزءٍ منه، هو التماس وقُربان يحثّ الحُبُّ نفسَهُ على تجاهلهما. في هذا السرير، الذي ما زال بدون ذاكرةٍ، أستيقظُ، ليلاً، وأنا أبحث عن الجسد الآخَر...

فَضَّلْتُ دائماً الرجالَ طويلي القامة، الذين يُخَفِّفُون بِسَواعِدِهِمْ وسيقانهم مِنْ أَثَرِ طردي من الجسد العائلي، بشكل مُفيدٍ. أَتَرَسَّخُ، وأنا الصغيرة، في عناقهم. يُلَفِّونني. بعد دوخة الرغبة، وحين يعثُرُ النَّفَسُ على تفرُّدِهِ، الأنفُ في جيد الآخَر، أتنفَّسُ بشكل عميق جِلْدَ الآخَر. الاحتفال الجسديّ، كلّ حساسية السرير، أقوم بالتقاطها، وأتمتّعُ بِنَهَمٍ. الطفلةُ الجريحةُ التي أُمثِّلُها تَحْرِص على تخزين حقّها من الأهواء والحنان والمداعبات والسذاجات والأشياء التي تخدش الحياء العامّ، التي كانت مرفوضة في السّابق، تحت أشكال وبشرة امرأة ناضجة.

أنا كائِنُ لَذَّةٍ خَارِج السَّرير، أيضاً. الحِرْمَانات والممنوعات، وبُؤْسُ الطُّفُولَة والمُرَاهَقَة، كل ذلك أعطاني مِزاج امرأة باحثة عن

اللذّة. استعجالٌ وقابليّةٌ للاستمتاع بِكُلّ لحظة. إنّ هذه العبادة للنَّعِيم، حَتّى وإنْ كان صغيراً، هو الذي يَمْنَحُ الاحتياجات الضروريّة حِدَّتَها الفائقة الوصف.

في الليالي التي أعودُ فيها من هذه الساحات والمُنْتَدَيَات والقُدَّاسَات الكبيرة المتكرِّرة عن الجزائر، وقلبي ملطَّخ، فإني أُحِسُّ، بطريقة شديدة، غيابَ جَسَدٍ ملجأ. جسد؟ أي جسد؟ لا. جسد يَتَجَوَّفُ لحاجاتي، والذي ينجحُ في مَلئِهَا وفي مَسْح الإهانات. قَبل «جون-لويس» كان تعلّقي بِرَجُلٍ مَا خَطَراً عليّ. كنتُ أتَّخِذُ عَشيقاً لمساعدتي على الهروب بسرعة. في الماضي لم أقتسم، أبداً، حياتي مع أحدٍ. من قبل كان بإمكاني أن أعيشَ مغامرات عديدة لِمَحْو جِلْدٍ ومُخّ حِدادات الحُبّ. كان هذا من قبل. قبل أن أَمُرَّ عبر تطويع طويل. والعُشَّاقُ، الآن، وكذلك النزوات العابرة ذاتَ مساءٍ التي تجعلني أَلُوذُ بالفرار في وسط الليل، هذا الشيء، لم أَعُدْ أستطيعُهُ، فضلاً عن أنَّ جسدي المُخَرَّبَ غيرُ قادر على الرغبة في هذه اللحظة. إنّ ما ينقصني، هو الراحة فقط، واللجوء إلى الأذرعة من أجل نسيان جنون البلد، ونسياني أنا والقدرة على النوم. آه، كَمْ أريدُ أن أنام! أنام لفترة طويلة.

أَشْرَعُ في السخرية: «أنا بلا عائلة بسبب المعركة، وبلا أطفال عن طريق الاختيار، مُحِبَّة من دون عشيق...» من المحافَظَة على البقاء، والمقاومة عن طريق القراءة مروراً بكلمات الرَّفض والقطائع، اندفاع أهوج يَصِلُ إلى الأوج مع الكِتَابة. كسَّرت الكِتَابةُ كلَّ ما تَكْنُهُ، وما لم يكن منها، كي تسود بلا مشاركة لِسُلْطَتِهَا تقريباً.

وحدهُ الطبُّ هو الذي ما يزالُ يَنْتَشِلُني من استبداديّته ويَدفعُ بي، واقفةً، على أطراف أَسِرَّة المرضى.

أَجْنَحُ (كمَا المَركب)، مُرْهَقَةً، على سريري بينما الابتهالات التي سمعتها في المنتدى تُواصِلُ دَوَرَانَهَا في رأسي. كَمْ يبدو لي بعيداً ذلك المساء الذي توقفت فيه الانتخابات في الجزائر، إشارة الانطلاقة لِكابوس جهَنَّميّ. في جوّ الرّعب، قمتُ بتجميع جماعة صغيرة للاحتجاج على التصويت المسروق للمُهاجِرين، وأسّسنا خليّة أزمة سمّيناها «كورار» CURARE لَجْنَة الاستعجال والمقاومة من أجل جزائر جمهوريّة، وقُمنا في الليل، حاملين لافِتات مُهَيَّأة على وجه السرعة، باحتلال قنصلية الجزائر في مدينة «مونبوليي». وعقدتُ فيها ندوة صحفية، وبعثتُ ببلاغات عن طريق الفاكس إلى الصحافة الجزائرية. والآن يبدو لي أنّ كلّ هذا كان تافِهاً.

أَتَشَبَّثُ بالكتابة، وبنشاط عيادتي. هذه العيادة التي توجد في حيّ المُهاجِرين، الحيّ التجاري في المدينة. وبطبيعة الحال، كان هذا خياراً منّي أن أفتح عيادتي في هذا المكان. كان قراراً مهمّاً اتَّخَذْتُهُ منذ خمس سنوات. بالإضافة إلى الكتابة، فقد كرّستُ نفسي إلى سكّان هذه المنطقة. وخلال سنوات عديدة في المستشفى كان زملائي يلجأون إلى خدماتي حَالَ تَواجدهم أمام واحد من مُوَاطِنِيَّ يستحيلُ التفاهُمُ معه بسبب عدم معرفته للغة الفرنسية. وقد اتَّضَحَ أن أغلب المواطنين من أصل مغربيّ - فَهُم يُمثّلون أغلبية الجالية المغاربيّة في المنطقة - وأحياناً من أصلٍ تونسيّ أو غيره. لا تهمّ بعض التغييرات في النبر أو في اللهجة. كانوا كلهم مُتَشَابِهِين، هؤلاء الرجال والنساء المضطجعين في المستشفيات والعاجزين عن التعبير

عن آلامهم. كانت أعينهم تُضَاءُ وتَتَرَجَّى الرَّحمةَ من أُولى الكَلِمات باللغة العربية التي أُوَجِّهُهَا لهم. كنتُ أقضي كَامِلَ وقتي في الاستماع إليهم وفي فحصهم، وفي توضيح الفُحوصات والعِلاجات التي يتوَجَّبُ عليهم تحملها كي أُطَمْئِنَهُم. وكانت وُعُودِي، فقط، بزيارتهم ثانية، هي التي تُحَرِّرني من مطالبهم المُلِحَّة ومن أياديهم التي تُحَاوِل أن تُبْقِيني، مزيداً من الوقت، بالقرب من أَسِرَّة تمّ تحويلها إلى كثير من المنافي في المنفى الذي يشكله الابتعاد عن الوطن.

لقد جاءتني، من هنا، ذات يوم، الحاجة الماسّة إلى هذه العيادة. وهو استثمار شخصيّ مُكْلِفٌ في المقام الأول. فإكراهاتُ النشاط في حَدّ ذاته لم تكن تُخِيفني.

بدأتُ العمل في سنّ الخامسة عشرة. وقد اشتغلتُ، بشكل دائم، بموازاة مع دراستي. وقبل أن أُكَرّس نفسي للكتابة، كانت آفاقُ الامتحاناتِ وحدَهَا مَنْ ساعَدَنِي على الصمود. فقد كان كلّ ديبلوم يُمَثِّلُ بالنسبة لي مرحلةً تَضَعُ محصلَتُها النهائية بطريقةٍ ساطعةٍ، وضعيةَ طبيبةٍ متخصّصةٍ، ستضع حدّاً لِسَنوات الضيق والشِدّة والإهانات والكدّ، حسب ما كنتُ أعتقد. وفي انتظار هذا التحول كنت أُغرِقُ آلامِي وأَنسى كلّ الآلام في اشتغالي من أجل سدّ لقمة العيش والتحصيل الدراسيّ. قذفتُ إلى الجحيم بِكُلِّ محظورات الوَالِدَين. محظورات القبيلة كُلِّهَا. الأرَقُ السماويّ، الذي كانت تُمثّله الصحراءُ بالنسبة لي. كلّ أشكال الاستهجان، التجريمات الاجتماعية. العُشَّاق الذين تُعَرْقِلُهُم الأعراف والتقاليد. البلد، وانحرافاته المافيوزية وشيزوفرينياته... أَلُوذ بالفرار دون أن أَلْتَفِتَ لِجِرَاحِ أَحَدٍ. ولم أَرْثِ، زيادةً على جراحات عائلتي. لقد منَحَنِي

تَعَطُّشٌ إلى الحياة مُلازِمٌ لليأس، هذا المِزاج غير المَرِن، والذي بواسطتِهِ أَتَحَدّى، كي أستهزئ بهم، المأساة كما الواجب. إنّ هذين الجَشَعَيْن، والقادِرَيْن في أمكنة أخرى على التسلُّقِ في أقنعة جديرة بالاحترام، ينْتَصِبانِ فظاعاتٍ في الجزائر. الجشعُ الأول دمويّ بينما الثاني كثيرُ الوَحل، إنَّهُما ثابتان لا يمكن الاستغناء عنهما لِكُلّ الحماقات.

حينَ يَجعلني خوفٌ مُفاجِئ أَسْتَشِفُّ أَهَمِيَّةَ الهاوية في مسيري، فإنني أَتَعَلَّقُ بِأكثر مَشَارِيعِي طُمُوحاً: «سوف أكتُبُ كلَّ هذا، ذاتَ يَوْم!» هذه الصرخة الجوانيّةُ بَعَثَتْ فِيَّ عودةَ تَصْمِيمِي. ذاتَ يوم، سيكونُ مُلْقىً على عاتِقِ الكِتَابَة توضيحُ حرية الخَسَارَات والأحزان، التي ما زالت تُقلِقُ أحياناً طريقي. الكتابة كآخِرِ ملجأ، كانت موجودةً فيّ قبل أن أبدأ فعل الكِتَابة منذ فترة طويلة. ولكنَّ المشروع، الرهيب في حدّ ذاته والجَبّار، يَظَلّ سَراباً خلال كلّ سنوات الكدّ هذه.

صحيحٌ أنّ نهاية الدراسة حملت معها المشاكل المالية، وأَنْهَتْ لَيَالِي حراسة المرضى التي تُدفَع مقابلها أجرة مُخَفَّضَة وغير قانونية. وهي حالة كلّ طالب مغاربيّ يحلّ بفرنسا. ولكِنَّ الحصولَ على مكان حقيقيّ في وَسَط الأطباء في المستشفى مسألةٌ أخرى. وسواء كنا حاصلين على ديبلوم أم لا، فإننا، بِسبب وُجوهِنَا المتوحِّشَة، نَظَلّ في غَير مَوَاضِعِنَا في هذا الجسم الطبيّ. ولكنّ صعوباتِ بعض أفضل أصدقائي ذوي الأصول الفرنسية، والذين لا يستفيدون من أيّ سَنَد داخليّ، يمنعني من إصدار أيّ حُكْم مُنْحَازٍ جدّاً. لقد كانوا هم أيضاً في صراع مع أسوأ الحَوَاجِز. غير أني كنتُ، لوحدي، أُرَاكِم

كلَّ العيوب. فأنا برونزيَّة اللون، وامرأة، ولستُ حتى بنت أحد أقطاب الجنوب، إضافةً إلى كل هذا فقد كنتُ ثرثارةً. الجنس الثاني لآخِر الأعراق، وتحديداً، من رفَضَ أن يخضعَ للتمدين. «الدليلُ هو أنه ما عليكم سوى النظر إلى الطريقة التي يتراجعون بها منذ أن غادَرْنَا البلدَ!» طبعاً! وإذا كانَ عندي هذا الحظّ غير المنتظَر في الحصول على وظيفةِ اختصاصيةٍ في أمراض الكُلى قبل نهاية دراساتي، فلأنه في هذه اللحظة، فقط، لم يكن أحدٌ من العشيرة يَضَعُ عينيه على هذا المنصب. وبطبيعة الحال تمّ تحذيري بأنه يتوجب عليّ أن أَرْشَح بأيّ ثمن بِمُجَرَّد ما أن يتَقَدَّمَ أحد أبناء السراي من الباب الصغير.

كنت أعمل دون أن أحصي عدد الساعات. كنت أَعشقُ الصورة الجانبيّة لهذه الوظيفة، وهو تعليمُ المرضى كيف يُدَجِّنون عوائقهم الرهيبة. وكذلك في بَرْمَجَة واستخدام آلاتهم من أجل الحصول على شيء من الاستقلال الذاتي. وكذلك في إمكانية تطهير دَمِهِم من الذِّيفَان القاتِل في بيوتهم. معظمُ المُصابين بأمراض غير قابلة للشفاء-الأمراض المُزْمِنَة-، الخاضِعِين، بِسَبَبٍ من العجز والقصور، لمساعدة وإسعاف شامل من مَراكِز الميْز، لهم نُزُوعٌ نحو تطوير مزاج شَكِس أو نَوَّاح وهو مزاج ينتهي بأن يُسَمِّمَ لهم حياتَهُم. إنّ تَحَمُّل أعباء المرضى ومُعالجَتَهُم في منازلهم، تُؤَنْسِنُ شيئاً ما من بَقائهم الرّهيب على قيد الحياة وهُمْ مُوثَقِين إلى كمبيوتر مُصَفَّح بإشارات وأجهزة إنذار بالخطر حاسمة. هذا يُتيحُ لأكثر المرضى المتشبّثين بالحياة أن يستعيدوا حياة ناشِطَة، ويتيح لهم كذلك حَصْر العاهَة في الساعات التي يَظَلُّون فيها موصولين إلى إحدى الآلات.

رئيسُ هذا القسم المُشارُ إليه وُلِد في منطقة «وهران» في عائلة من المستَعْمِرين، «ملاّكين عقاريين كبار»، كان كثيراً ما يَهْمِس بهذه الرنّة الدائرية للأصوات التي كانت تتلذّذُ لِكَونِهَا فتحت عيونها، دُفعة واحدة، على أفضل ما في الوجود. كما لو أنّ هذا يُمثِّلُ ضَمانَةَ قيمة في حدّ ذاتها! وكانت إحدى المُناسَبَات القليلة التي كانت الرزانة، المفترض أنها وَقْفٌ على الأرواح كريمة الأصل، يَكْبَحُ الهستيريا والعجرفة التي كانتا تُميّزَانِهِ. ومن بين مُبالَغاتِهِ الأخرى، عَداوَتُه التي لا مَثيلَ لها للمرأة، والتي تعودُ، دونما شكّ، إلى رفضه لِنَصيبِهِ الخاصّ من الأنوثة. كان مثلِيّاً جنسياً معروفاً، وكان يُجهد نفسه على إخفاء ذلك خلف سلوكٍ مُستبِدٍّ. هذا الرياءُ، والازدراء الذي ينتُجُ عنه كان يُذْهِلُنِي. كيف يمكن انتظارُ الاحترام من شخصٍ لا يَحْتَرِمُ حتى نفسهُ؟

كان هذا الشخص المختلّ العقل يُؤاخِذُنِي، في كثير من الأحيان، على التواطؤ الذي أُبديه حيال الممرّضات، وتعريضاته واحتقاراته في كلّ لحظة: «يجب أن نَعرِفَ من أيّ ضفّة أنتِ! يتوجَّبُ علينا أنْ نُجَدِّفَ في الاتّجاه نفسه!» وبما أنّي كنتُ أطرده شرّ طَرْدة، كان يقول لي برنّة فيها كثيرٌ من الاحتقار: «لا تَنْسَيْ أننا مَنَحْنَاكِ مِنّة، بتشغيلكِ معنا!»

حينما تكون فتاةٌ ما من الوَسَط الطبيّ طامعة في هذا المَنْصِب، فإنّ رئيس القِسْم، المُتَحَالِف مع أكبر آيَات الله يُديرُ الوَسَط، بَذَل كلَّ الوسائل من أجل التخلّص مني. ويستطيعون حتى الذّهاب إلى اتهامي بارتكاب خطأ مهنيّ خطير، لو أنّي لم أدافع عن نفسي. انفَجَرْتُ:

«إنَّكِ لم تُنَاضِلِي إلى هذه الدرجة، إنّكِ لم تقطعي هذا الطريق كي تُقَاسِي هذا، الآن! إنَّك لم تهربي من آيات الله هناكَ، كي تتحَمَّلي آيات الله هنا. إنَّكِ لن تَكوني أبَداً إلاّ عَرَبِيّة نفسكِ لا عربية أَحَدٍ. وهؤلاء الناس، في نهاية المطاف، يُقَدّمون لكِ خدمة. من خلال الإفصاح عن أنّكِ لستِ من عالَمِهم، يساعدونكِ لتَعِي بأنّهم لن يشكّلوا، وبأيّ ثمن، جزءًا من أهلكِ. إنّ مُعاناتِهم وكُرهَهُم للنساء وصراعاتهم الصغيرة، ليست أنتِ. البعضُ منهم، ربّما، لاَمِعُون جداً في تخصّصاتهم. وهم، أحياناً، معروفون على الصعيد العالمي. ولكنها معرفة محدودة جدا. وما عدا هذا، فَهُم جَهَلَة.

خلال كل هذه السنوات المليئة بالمشاكل، كنتُ أُحَمِّسُ نفسي: «حين سأنتهي من دروس الطبّ، ثم من التخصّص، سوف أشتري لنفسي منزلاً جميلاً. وستكون لي حديقةٌ مليئةٌ بالورود. ولن تكون لي أيّة مَشَاكِل»... كنتُ بعيدة عن أن أفكّر في أن نهاية الدراسة، والرفاهية المادية ستُماثِلُ اضطراباً كهذا. ولم أكن أتوقع أنهما، نهاية الدراسة والرفاهية، حشَراني في إثبات الحالات وفي تساؤلات وفي شكوك. وبما أنه لم يَعُد لديَّ أيّ امتحان قادر على وضعي في حالة تَنَبُّهٍ، وكي يُصفِّحني بالتحدي، فإنه لم يَعُدْ لديّ أيُّ رِهان قادر على إخفاء تمزّقاتي. أما المال فلم يستطع أن يفعلَ شيئاً.

في هذه اللحظات انفرضت عليّ الرغبةُ في الكتابة، هذه الرغبة التي كانت، إلى حدود اللحظة، مؤجَّلَةً بسبب من الضرورات المادية والدراسة، فرضت نفسها باستعجالٍ وهي تصفق الباب. الحاجة إلى الاختصاصيين في أمراض الكلى في القطاع الخاصّ لا تتوقف. أستطيعُ أن أختار بعض التنقلات وتكريس معظم وقتي للكتابة. سنة

1985، سنة الطُّرُق الرَّئيسيّة. طُرُق جنوب فرنسا، من أجل أن أُمارِس مهنتي. الطريق الداخلية أيضاً، طريق الكتابة، هذا الطريق الطويل والوَعِرَ.

أربع سنوات من عمل مُجْهِد من أجل كتابي الأول، «الرجال الذين يمشون»(*). أربع سنوات في تَسَمُّع الطفولة والمراهقة. كتبتُ في إحدى النصوص التي تعود إلى هذه المرحلة: «[...] تَدافعتْ، كلماتُ الصمت، كلماتُ كل أنواع الصمت. لطَمَتْنِي بقسوة ناجعة. وجعلتني في آنٍ واحد ثَمِلةً وحائرة.

الكتابةُ، الكتابةُ ودَوَرَانُ الكلمات تُحبِط التَّبَارِيح الشديدة. الكتابةُ وتَسويدُ البياضِ جسد الورق هو رِبْحُ صفحةِ حياةٍ. هو استرجاع شِبْر مِنْ نَفَسٍ من بَرائِن القلق. أنا في الكتابة مثلما لو أني على عتبة الإنسانيّة. أستطيع أن أُعانِق كُلَّ تنوعاته، وأحياناً أستطيع أن أهتزّ لارتعاشاته الأكثر رِقّة.

الكِتَابةُ هي تَرَحُّلُ عقلي في صحراء النقائص، في طُرُق حنينٍ مَسدودةٍ.»

في نهاية هذه العودة إلى الجزائر عبر الكلمات - لم تَطَأْها رِجْلايَ منذ رحيلي عنها- قررت أن أفتح عيادة طبّ عامّ كي أهتَمَّ بهؤلاء الذين لا يسأل عنهم أحدٌ، المهاجرين.

كان «جون-لويس»، في البداية، ذَاهِلاً: «ولكنكِ لن تستطيعي أن تفعلي شيئاً بهذا التخصص الثقيل جداً! فَآلات الميْز والحاجات

(*) تمت ترجمة هذا الكتاب إلى العربية وصدر عن «المركز الثقافي العربي» بعنوان المهاجرون الأبديون.

الضرورية لأمراض الكلى، لا توجد إلا في المستوصفات الخاصة أو في المستشفيات. - بالضبط، سَأدَعُ اضطرابات الخَطَر الكبيرة وألتَحِق بالطبّ العامّ. - إننا لا نَدَعُ تخصُّصاً يمكن أن يَدِرَّ علينا خضْيَتَين من ذهب. سواء كانت من ذهب أَمْ لَمْ تكن، فأنا لا رغبة لي في امتلاك خِصيّ. زميلان أو ثلاثة زملاء من هؤلاء يَكفُون لإثارة اشمئزازي. كنتُ أجيبُ في كثير من الأحيان: «إنّ «مونبولييي» لم تَنْتَظِرْني، كي تُنجِبَ نِسَاء بورجوازيات. لقد كُنَّ كثيراتٍ حَتَّى قَبْل بناء كلية الطبّ الذائعة الصيت في القرن الثالث عشر! إنّ فرنسا تُحصي، دائماً، مُتَخَصِّصين لاَمِعِين في كلّ الأنواع. وإذا أردتُ امتلاكَ بعض الفائدة، في هذا المكان، كطبيبة، فإنه يتوجّب عليّ أن أذهبَ حيثُ توجد حاجةٌ حقيقية إليّ، وحيث أَضَعُ خَدَمَاتِي في تصَرُّفِ من تعرّضوا للإقصاء. هؤلاء الذين لا يعرفون، في معظم الأحيان، حتى التحدث باللغة الفرنسية ولا تسمية آلامِهِم.»

حولي صرخَ عددٌ من أصدقائي الأطباء قائلين: «إنّ «مونبولييي» تَعُجُّ بالأطِبّاء العَامِّين! سوفَ تَقْضِين وقتكِ في انتظار المرضى! - لا، سوف أستطيع أن أكتبَ قَدْرَ ما أُرِيدُ!» حدث هذا في سنة 1989.

«بِدُون تَوَتُّرَات أبحاث الكلى وأمراضها، وبمساعدة الكِتَابَة، ربما سأستطيعُ أن أنام بِشَكلٍ أفضلَ.» النومُ بشكلٍ أفضَلَ، هذه الرغبة بِكُلِّ التَغَيُّرَات تَمُسّ عقلي بِرِفْقٍ وتَمُرُّ دون أن أن تتحوَّلَ إلى انتظار حقيقيّ.

هناك

الزمنُ المُبارَك الذي كان فيه فراشي المصنوعُ من القَشّ هو الفراش الوحيدُ المُلاصِقُ لفراش جدتي، لَمْ يَدُمْ، مع الأسف، لفترة طويلة. بالسرعة التي ينتفخ فيها بطنُ أُمّي ثمّ تضع حملها كُلَّ ثلاثة أو أربعة عشر شهراً، فإن المنزل امتلأ بِحَشدٍ من البَشَر. التحقتْ بنا، جدتي وأنا، أختي الصغرى. وعلى الرغم من نومها الراسخ فإنها اضطرت لأن تستيقظ، هي الأخرى، عند مَرَحِ الوالِدَين. فأنا لا أرى من تفسير آخَر لإبعادها عدة أمتار عن النوم العائلي. ومنذ تلك الفترة، وفي كل مساء، كانت تقوم بإغراق وسادتي بدموعها من جراء إبعادها. كانت دموعُها تُثير مَشاعِري. كانت الدموع تسيل غزيرة مثل الماء. وبما أنّ أختي كانت بدينةً، فقد كان ينتابني الشعورُ بأنه تمّ ثقب قِرْبَة الماء، وهي كيسٌ من جلد الماعز، لِتُوضَعَ بالقرب منها. ولكنّ إحساسَها باليأس كان يفتنني ويُسلّيني. وبعد أن راقبتها بِفُضول شَرِهٍ شيئاً مَا، قررتُ في نهاية الأمر أن آخُذَ بِيَدِهَا.

كانت تُغمض حالاً جفْنَيْها وتنامُ وهي تشهق عاليا. وكان يمتلكني الإعجاب، لفترة طويلة، لمنظر رُمُوشِهَا وهي تقطرُ بالدموع.

اضْطَرَّنَا العددُ المتزايدُ من الولادات إلى بناء غرفَتَيْن إضافيتين لإيواء الجميع. لا شيء أكثرُ بساطةً من صناعة قِرميد من الطين. بضع ساعات من العمل هي التكلِفَة الوحيدة. أتساءَلُ لماذا لمْ يَتِمّ التفكير في بناء هذه الغرف من قبلُ. لا يتطلب الأمرُ من الرجال إلاّ حفرُ الأرض بالقرب من المنزل، ثم تبليلها وعجنها قبل ترصيصها في قراميد وتعييرها بفضلِ قَالَب من الخشب. وتركها حتى تَيْبَس بشكل جيد.

ومنذ هذه الفترة، لم يَعُدْ أحدٌ ينام في المطبخ. ولم يتسَبَّب هذا القرار في أيّ نَدم ما دامت المدفأة لم تَعُد موجودة هناك. فقد جاءتْ آلةٌ كهربائية لتَحُلَّ محلّها من دون أيّ جاذبية. لقد كنتُ، والحقّ يُقالُ، سعيدةً جدّاً بأن أبتعد عن المطبخ. فَمَا زال يحوم بالمكان سرّ عائليّ دنيءٌ في الوقت الحاضر. أُحاولُ أن أُقنِعَ نفسي بأن الأمر كان يتعلّق أيضاً بكابوس فظيع. أنجح في هذا. A l'insoutenable nul n'est tenu.

أَوّلُ سريرٍ حقيقيّ كان من نصيبي ومن نصيب أختي. شراء جريءٌ، بعض النَّوابِض المُتَأَوِّهَة، يُسلِّمُ بالحداثَة. ولكنْ مَا إنْ وصل السرير إلى عين المكان لم يُقْبِلْ عليه أَحَدٌ. لأنه تحت ثِقَل الأجساد، تتقعَّرُ هذه النُفاية الحديدية أكثر من أُرْجُوحَة نوم، فَتُكَسِّرُ الظُّهورَ المعتادَة على النوم على الأشياء الصلبة والخَشِنَة. لهذا السَّبب فإنَّ هذا السَّرير ليسَ سهلاً. ولكنّي مستعدةٌ لكلّ الغَرَائب. عند استخدام السرير ارْتَبْتُ في أنّ صريرَهُ الذي يحدُثُ عند كلّ حركة هو الذي كان وراء رفض والِدَيَّ الحادّ لهذا السرير الذي كانا اشْتَرَيَاهُ من أجلهما.

أختي، التي تشبه حيوان المرموط، لا تُشَوِّش على أَرَقِي. ثمّ إني من قاعدة السرير أستطيع أن أرى سريرَ جدَّتي البعيد عني شيئاً ما. فقراءاتي المتأخّرة انتهى بها الأمر، ذات يوم، أن تَفْتَرِسَ اهتماماتي والوقت المُكَرَّس لِحِكاياتِهَا ومحكياتها. كما أنه تنتابني بعضُ مَظَاهِر النَّدَم لكوني جَعَلْتُها تتحمل، ولفترة طويلة، وَمْضَة شمعتي. ولكن الحاجة إلى عَوَالِمَ أخرى لا تُرْوَى. الاغتراب الوحيد الذي أَمْتَلِكُهُ، فالكِتَابَ يَقتلِعُني من كلّ ما يسجنني، ويمنَحُني إمكانية أن أحْلُمَ بالمجهول، ويُهيِّئُني للنَّوْم. أُراقِبُ من حيث أستلقي جدَّتي خِلْسَةً. شَبَحُها المَهْجُور يُحدِثُ انقباضاً في صدري. أُعزّي نفسي من خلال الاستنتاج بأنّني لا أخضعُ لهذا البُعاد إلاّ من أجل الحفاظ على نومها الهشّ. عُذْرٌ وَاهٍ لم ينجحْ في الصفح عنّي حَتَّى أمام عينَيَّ. أحياناً أكتَشِفُ نظَرَهَا المحتَرِزَ وهو يمرّ عليَّ وعلى كُتُبِي. وكي أُفْلِتَ منه أستغرقُ في الأَمَاكِن البعيدة عني عبر الكِتَابة.

شبكة صخب أنثى الأدبية
www.xx5xx.com

ليلة الأجساد الراحلة

هنا

المَطَر يَنْقُرُ أحجار السُّطوح. رَذَاذٌ، مطر مِدرارٌ. أعشق الاستماع إليه وأنا مستلقيةٌ في سريري. بشرط ألاّ يدوم طويلاً، وأعشقه حتّى في النّهار. إنه يُهدهد لذة الكِتابة أَمامَ المَوْقِد. ولكّني أُفضّلُ العَوَاصِفَ التي يُذَكِّرُني صخَبُهَا بِعَوَاصِفِ الصّحراء. منزلي الجاثِمُ على مرتفع صخري، والمُشرِف على جُرْف تحيط به سلسلة من الروابي، يوجد في الصفوف الأولى لمشهد هذه العواصف. فيَتَعَرّض منزلي، أحياناً، للصواعق.

الرّذاذُ الذي يَتَواصَلُ دونما انقطاع ينتهي به الأمرُ بأن يمنحني الإحساسَ المُقْلِق بأنه يُشرّبُ جلدي. أُحِسُّ بأنني مُبَلَّلَة داخِلَهُ. تهديد بِغَرق العُروق الشَّعَرِيَّة. أُحِسّ بالغَثَيان. أبحثُ عن الهواء وفي ذهني هاجس بأنه يكفي أي ضغط على رئَتَيَّ ليجعلني أتقيَّأُ أَعَاصِيرَ اليوم المائية. أَشِعَّة الضوء الأولى تُحَرّر تَنَفُّسِي وتُعيدُ إليَّ تقاطيع جسمي، الإحساس بالكمال وبِتماسك جِسمي. أَثِبُ خَارِجَ المنزل، وأَقْفِزُ بِخُطًى كبيرة واسعة لأنّ الحَاجَةَ إلى الإحساس بالشمس في العينين وفي مَسَام الجِلْد حيويّةٌ.

اكتشفتُ هذا في باريس. هذا العَرَضُ الذهني والجسدي

بالنقص في الشمس، وبِنقيصةِ احتراقها على الجِلْد. لم أفقد هذه الأشياءَ من قبلُ، أبداً. بل على العكس كنتُ أتعرّضُ لإفْراطِهَا.

في سريري، أثناء الليل، وتحت فراشي الريشي أَعْشَقُ الإنصات إلى تَسَاقُط المطر في الحديقة وأتَفَاءَلُ بفوائده، وأُفَكِّرُ، مِنْ جديد، في رغباتي في السَّحَاب وفي العواصف، هناك في الصحراء. المَطرُ، هنا، يَتَسَاقَط على صحرائي أيضاً.

في هَمَسات الرذاذ يعود إليّ الوَجْهُ الصَّارم لامرأةٍ جاءتْ تُحذِّرُني ذات ما بعد ظهيرة: «سيّدتي، لقد جئتُ، اليوم لأتَحَدَّثَ مع الكاتبة وليس مع الطبيبة. لا أعرف ما إذا كُنْتِ تَتَذكَّرين... فأنا سوريّةٌ، شاعرةٌ... ولكني أكتبُ باللغة العربية. أقْطُنُ خلفَ عيادتكِ، مُباشَرَةً. ومِنْ وَاجبي أنْ أقول لكِ إنّ مَواقِفَكِ وكِتاباتِكِ تَضعُكِ في مَوقِع الخَطر. إنّ ما أسمعُهُ، أحياناً، بخصوصكِ... أنّكِ تُمثّلين الشيطانَ بالنسبة للمُتَطَرّفين. أنكِ امرأة يجب تصفيتُهَا. أنا خائفةٌ عليكِ. والأُصوليون موجودون، هنا أيضاً».

معطفُهَا الذي لا يخترقه الماءُ يَتَقَطَّرُ حول جَزْمَتَيْها الصغيرتين. أَلْقَتْ نَظَرَهَا حول طاولة الفحص في القاعة المُجاوِرَة قبل أن تُضيفَ: «سريري يلتصق بهذا الحائط، من الجهة الأخرى. أُفَكِّرُ كثيراً فِيكِ، وفي الناس الذين يأتون لِيَتَعَرّوا ويستلقوا هنا، على بعد سنتمترات مني، -أنا أكتبُ في السرير- وأُفَكِّرُ في ما يمكن أن يُحَدِّثوكِ بِهِ.» ثم أضافتْ وقد اتَّخَذَ مَظهرُهَا شكلاً ماكراً «حين أتيتُ لآخُذَ استشارة طبية، لأول مرة، كان الأمرُ خصيصاً لرؤية ترتيب عيادتكِ. ومن حينها كتبتُ قصيدة بين الأسرّة... الأسرّة بين المَنَافِي، ليل الأجساد الراحلة.»

أَهُزُّ كَتِفَيَّ تحت السرير الريشيّ. شتائم وتهديدات من كلّ نوع ترافقني منذ طفولتي. وقد دَفَعَتْنِي، دائماً إلى أن أُقَاوِمَهَا وأن أتَحَدَّاها. أنا واعية بكلّ هذا. غير أنّ الوَحشيةَ، لمّا عَجزَتْ عن القضاء عليّ، قتلت في دواخلي الجزائرَ، لِفَترةٍ طويلةٍ. هناكَ، في الصحراء. كنتُ أبلغ الخامسة عشرة من العمر. ذات مساء، في الفاتح من نوفمبر، وهو ذكرى انطلاقة حرب الاستقلال، كدتُ أن أُعْدَمَ من دون مُحَاكَمَة، فقط لأنّني لم أَكُنْ محجَّبَةً. فانغلقتُ، أكثرَ فأكثر على الكُتُب كي أحافظ على حياتي من الصَّدَمات. فانْشَطَرْتُ إلى اثنتين: إحداهما تُواصِلُ القراءة والخِدَاع والأخرى سَمَّرَها أَلَمٌ صامتٌ. الوُجودُ والمُقاوَمَةُ والأَمْكِنَة البعيدة عن الكتب مثل بابٍ مصفوق، بِسُرعةٍ، على ما لا يُمكِنُ تسميَتُهُ sur l'innommable. دفنتُ المعاناة إلى أعماق أعماق نفسي. خلال عدّة سنوات، لَمْ أَتَلَفَّظْ بكلمة عن هذه المأساة. ومن بين كلّ الكلمات التي ظلت حبيسة حُنجرتي بِكُلّ ما تحمله من الفظاعة، ظلت الخلاصة الوحيدة لهذا الخراب، وهي أنّه لا وطن لي. أحسستُنِي عديمةَ الجنسية.

إنّ هذا العنف، بشكل أخصّ، هو الذي يُمسِكُ بي من بين مختلف أشكال العنف بالجزائر، اليومَ.

لا أَشعُرُ بالخوف، هنا. مَرْضاي يوجدون معي. لا أَومِنُ بدول قانون. غير أنه في هذه السنة نفسها، 1994، جاءني زوجان جزائريان عجوزان وقالا لي: «يا بُنَيّة، لقد طُلِبَ منّا أن لا نأتي لاستشارتكِ، وطُلِبَ منّا أن نُقاطِعَكِ لأنكِ في نظرهم، مقترفةٌ لخطايا. بل لقد قِيلَ لنا أكثرُ مِن هذا. فأجبناهُمْ بأننا نُحبّكِ كثيراً لأنكِ تهتمّينَ بِنَا أكثرَ مِنْ

أيٍّ كان، وبأننا نجدكِ امرأة طيبة. -هُمْ؟ منْ هُمْ؟ -أنت تعرفين من هم. وهُمْ كثيرون. يَجِبُ أنْ تَحتَرِسِي.» ابتسمتُ وأنا أُراقِب القَسَمات الذكية، والتعبير الأريحي لهذه المرأة المُسِنَّة وهذا الرجل العجوز، هذين الأُمِيَّيْن. هُمَا يرفُضَان السخافة كما يرفضان الذُّعْر، دونما خِطابٍ ولا إحساس بالبطولة. أُحِسّ بأنني قويّةٌ بفضلهما، وبفضل تَقديرِهِمَا. سمعتُ رنّة الجرس نفسها مِنْ مرضى آخَرين.

ها قد مرّتْ أكثر من سنَتَيْن تَتَابَعَ فيها أشخاصٌ من مختلف الديانات ليحذّروني، وليعبروا عن قلقهم على حالتي. ومنذ فترة قصيرة، جاء صديق جزائريّ، لاَجِئٌ منذ فترة قصيرة في «مونبولييه»، يُوبّخني: «أنت وحيدةٌ في هذه العيادة، مع كل ما تمثّلينَهُ في عيونهم، أنتِ هدفٌ مثاليٌّ! - إسمعْ إنّ جزئي من الذُّهَان الجزائريّ قد أُشْبِعَ هناكَ. ومن المستحيل نقلهُ إلى هُنَا.» مرة أخرى، جاء دورُ صحافي شاب من الجيل الثاني لِيُحَذِّرَنِي: «لقد أجرينا تحقيقاً لفائدة جريدة. إنهم منغرسون بشكلٍ كبيرٍ في هذه المنطقة. فإذا انتقلوا إلى الحركة، فإنكِ ستكونين أَوّلَ مُسْتَهْدَف. - إذاً فأنا أعتمدُ عليكَ في أن تُخبِرَني إذا كانَ الهجومُ وشيكاً.» ثم أضفتُ وأنا أرى وجهَهُ يفقد البوصلة: «ما الذي تريد أنْ أفعَلَهُ؟ أن أتوقف عن الحياة، وعن العمل؟!»

لَسْتُ فاقدة للوعي. لا أُقَلِّلُ من المخاطر عن طريق التَبَجُّح أو عبر الاستفزاز. في إحدى ليالي سنة 1990، أُحرِقَتْ سيارتي أمام منزلي، بعد شهرٍ فقط من صُدُور كتابي الأوّل. فقد تحدّثتْ مقالاتٌ نُشِرَت في صُحُف محليّة، مُوَشَّاة بكتاباتي، تتحدث عن طفولتي أثناء حرب الاستقلال. خلال هذه الفترة، لم نكن، رفيقي وأنا، نُكَلِّفُ

نفسينا عناء إدخال سيارتيْنَا إلى المِرْآب. فكُنَّا نُوقِفُهُما أمام البيت، على مشارف منحدر صخري. كان المكان حياً سكنيّاً هادِئاً. كان يوجد في السيارة صولجان هِرِمِس مما يدل على أنها سيارتي، وهي السيارة التي تمّ صبّ الوقود عليها وإحراقُهَا. وعلى هيكلِ السيارة الأخرى، التي كانت على مبعُدة مِتْرَيْن اثنين، ذابَتْ كلُّ الموادّ البلاستيكيّة تحت تأثير الحرارة. ولكن السيارة نجتْ من الحريق. في الصباح، وعند استيقاظي، وجدتُ هيكلَ السيارة المُحْتَرِق.

لاَحِقاً، وبعد سنتين، أخرجَتْ حربُ الخليج من حنجرتي هذه الكلمةَ التي لم أكن قد تَلَفَّظْتُ بِهَا مِنْ قَبْلُ. والتي لم أجْرُؤْ على كتابَتها مِنْ قبلُ: عديمة الجنسيّة. عديمة الجنسيّة في بلدي بِالتَبَنّي، فرنسا، هذه المَرّة. أحسستُ برغبة في التقيُّؤ من جَرّاء حُصُولِي على الجنسية الفرنسية. فرنسا هذه، فرنسا المنضوية في تحالف إرهاب الدولة، تمنحني رغبةً هائجة في أنْ أَمَّحِي من كل ما يحمل كلمة فرنسا. باستثناء اللغة. لم أفكر في التخلّي عن اللّغة في أيّة لحظة. غير أني لم أعتَبِرْ، أبداً، الشعبَ الفرنسي كوحدة مُتجانِسَة. حتى أثناء حرب الجزائر. وخُصوصاً أثْنَاءَ الفَظَاعاتِ، هُناكَ. مَشَاعِر تعاطُف من قِبَل اليهود أَوْ من قِبَل الأقدام السوداء ساعدتْنِي على إقصاء هذه الحدود من رأسي. لاحقاً، ودون أن أَتَنَصَّلَ من أُصُولِي، حصلَ عندي اليقينُ بأنّ طائفتي الحقيقيةَ هي طائفةُ الأفكار. ولأنّ الجزائر موجودة، فقد كنتُ أعتَقِدُ بأنّ فرنسا قد تخلّت، نهائياً، عن جَشَعِهَا وعن طَمَعِهَا، الذي بدّلت سحنَتَه، بِصِفة مُنَافِقَة، إلى مهمة تمدّنية وحضارية. ولكن وحدها الخرافةُ هي التي تتغيرُ. وسواء كانت مهمة تمدّنية أو حبّاً للعدل والإنصاف من طرف أنصار حقوق

الإنسان، فإن النتيجة هي كرنفال مَصَّاصِي الدّماء نفسُه. دون أن نحصي الانعكاسات السلبية التي تسبّبتْ فيها، في الجزائر على بعض الديمقراطيين المُتّهمين، منذ أمد طويل، بأنّهم عملاءُ الاستعمار. أمّا أن تكونَ قبضةٌ من فرنسيين، ومن بينهم وُجُوهٌ هامة، مُعارِضةً شَرِسة لهذه الحرب، فلا يُخَفِّفُ، في شيءٍ مِنْ مَرَارَتِي. لقد ظلوا أقليةً. ثمّ إنّ تَوَاجُدَ كثيرٍ من أعيان الجزائر الفرنسية على رأس الدولة الفرنسية يفتَحُ، من جديد، أحد الكوابيس: وهو أن حرب الخليج مُعاودةٌ للحروب الصليبية التمدّنية للقِوى الاستعمارية كلها مجتمعةً.

ذات مساء، وفي أحد النقاشات الصّاخِبَة، لُمتُ إحدى أعزّ صديقاتي، «ماتيلد» لأنها لمْ تَعِ، بما فيه الكفاية، خسائِرَ وجور هذه الحرب. إنَّ هذا الشُّعُورَ المُفاجِئَ بالعزلة، حتى بين أحضان من اخترتُهُمْ، من بين عائلة تفكيري، أصبح، بالنسبة لي، أمراً لا يُطَاقُ. النبرةُ تَصَاعَدَتْ، ولم أَعُدْ أتحَكَّمُ في نفسي، اخْتَطَفْتُ كأساً كبيرة بالقرب منّي وقَذَفْتُ بِها في وجه «ماتيلد»... بعد يَوْمَيْن أو ثلاثة أيام، جاء بعضُ المغاربيين في مُنْتَهَى الهياج والتوتّر إلى عيادتي، ومَدُّوا لي نسخة من صحيفة «لوميدي ليبر» وقالوا: «إقرئي، إنّه يُهينُنَا جميعاً!» والمقصودُ هو عُمْدَة المدينة. فقد كان مقالُهُ بعنوان: إفلاسُ المُثَقَّفِين المُسلِمين. وهو خليطٌ من عبارات أقل ما يمكن أن يُقالَ عنها إنها اختزالية من جانب عمدة وأستاذ في تاريخ القانون! في مُناسَبات أُخرى ما كانت هذه الهذيانات لتُثيرَ أعصابي. ولكن في هذه اللحظات التي تُعانِي فيها الخَوَاطِرُ من فَرْط الإشتعال، فقد وجدتُ أنّ هذا الموقفَ غيرَ مسؤول. تَلْفَنْتُ حالاً إلى مدير تحرير الصحيفة، وكنت مصمِّمةً على أن أَقْذِفَ بعضَ السِّهَام في اتجاه

الخلاصات التبسيطية لِخطاب هذا الرجل.

في صباح اليوم الذي نُشِرَتْ فيه رسالتي المفتوحة إلى العُمْدة، هَاتَفَ أحدُ الأشخاص قِسْمَ أبحاث الكلى وأمراضها في المستشفى- في الصحيفة تمّت الإشارة إلى كوني اختصاصية بأمراض الكلى- ليَعرف مكانَ تَوَاجُدِي. السيدة التي تشتغل حارِسةً لم تَحْتَرِسْ. هاتَفَتْنِي على وجه السرعة، مذعورةً. «قال لي: «أشكُرُكِ، سيّدَتِي. أنَا ذاهبٌ لِقَتل هذه المومس» كانت عنده لكنةُ الفرنسيين الذين كانوا في بلدِكِ. إنّه خطئي. يجب ألاّ نظَلَّ في مكاننا. هيا بنا نُقَدّم شكوى مشتركة»

صوتُ رَجُلٍ مُسِنٌّ بدون أيّة حجة سوى ضغينته وحِقده. بعد أن انتهيتُ من الحديث مع الحارسة، ذهبتُ عند بقّال مغربيّ مُجاور وحكيت لهُ الحادثَ المُزْعِج. فقال لي: «لقد هاتفوني أنا أيضاً، وهدّدُوا بتفجير الحانوت. لا تقلقي يا بُنَيَّتِي، سَنُدافِعُ عنكِ.» فتعبّأَ حشدٌ من شباب من الجيل الثاني لحراسة عِيَادَتِي، وكانوا يدخلون، جماعةً، إلى قاعة الانتظار خلفَ كلِّ مريض. «هل كل شيء على ما يُرام، يا دكتورة مليكة؟» فأغرق في الضحك. لا، إنّ هذا المريض لا يأتي من أجل قتلي، بالرغم من أنه يتوفر على رأس فرنسية خالصة. فيخرُجُ الأولاد العفاريت وهم يدورون دورات نصفيّة، وهم مبتهجون بسحنة المريض المُنْذَهِل. ولكنْ إذا كانت يقظَتُهُمْ تَشُدُّ من عزمي، فإن فكرةَ جاليات تَتَرَاشَقُ بِنَظَرات غاضِبَة تجْرَحُ مَشَاعِري...

في مساء اليوم نفسه، شاركتُ في منتدى من أجل السّلام. وكان من بين الحُضور «حمّادي الصيد» الممثل السابق للجامعة العربية في باريس، والذي كان قد أصبح مُمَثِّلاً لتونس في

اليونيسكو. التقيتُهُ لأول مرة. قال: «لقد قرأتُ مقالكِ، برافو! برافو، يا سيدتي! أنا سعيد بِمُصافَحَتِكِ.» كانتْ تنتابُني نشوةٌ كبيرةٌ لمجرد تَخَيُّل رؤية هذا الرجل الذي أُكِنُّ له الكثيرَ من الإعجاب. «تلقَّيتُ عدة تهديدات بالموت من أجل هذا. - يجب رفع دعوى. إرفعي دعوى وَوَاصِلِي. يجب ألاّ تستسلِمِي!»

إنّ تقديمَ دعاوى في مثل هذه الحالات، شبيهٌ بالمشاركة في منتديات من أجل السلام. لا يؤدي إلى أيّ نتيجة. وهذه الحرب ستَنْتَصِرُ على قلب «حمادي الصيد» الرجل الشجاع واللامع. فقد ماتَ بعدها بقليل. وبوفاته خَسِر المغرب العربي صوتاً كبيراً.

السيارة المحترقة وهذا التهديد يأخذان توقيع قُدَامَى منظمة الجيش السري[8] OAS. وقد كانوا كثيرين من «نيس» إلى «أليكانتي». من «نيس» إلى «أليكانتي» هِلاَلُ الخَطر. حربُ الخليج سَاهَمَت في إيقاظ اندفاعات أَلَم متكيِّسة. تُجّار السلام تمّ سلبهم وتشليحهم. فرنسا المرتكزة على حقّ الدم لها، هي أيضاً، خلاياها النّائمة.

بطبيعة الحال، أنا أَخْشى، ضمن ما أخشاه، انعكاسات الإرهاب الجزائريّ على التراب الفرنسي. ولكنني أَظَلُّ مُقتَنِعَةً بأنّ هذه التفجيرات في هذه الحالة، سَتَتَوَجَّهُ إلى مَصَالِحِ الدولة وليس إلى أفراد معزولين.

يَدَايَ تحت رأسي، وأَنَا مَا أَزَالُ أُفَكِّرُ في هذه الكلمات: الخلايا النائمة. إِنَّهَا تَرِنُّ في أعماقي بشكل غريب.

(8) حركة إرهابية فرنسية كانت تعارض استقلال الجزائر.

على الرغم من هذا الاستعراض العامّ، فأنا لا أنجحُ في استحضار النوم، أَقْفِزُ من السرير، أقوم بابتلاع مُهَدِّئ وكأس ماء كبيرة. في هذا المساء كنتُ سأَضْدِم رأسي كي أَقْتُلَ نفسي، وأَسقُطَ في ثُقْبٍ أسودَ. لاَحِقاً، بعد ساعةٍ أو ساعَتَيْن، وفي حالة السُّبَات التي قادَتْنِي إلى السرير، عَاد إليَّ أحدُ الكوابيس، بصفة مفاجئة. كنتُ قد طردْتُهُ من عقلي، بِشَكلٍ كليّ.

ذات ليلة، وقبلَ شهرَيْن من افتراقنا، تقريباً، استيقظتُ وأنا مُغرِقَةٌ في البكاء. هَمَسَ لي «جون-لويس» وهو يجذبني إليه ويحتويني بذراعيه وساقَيْه: «إنه ليس إلاّ كابوساً! ما الذي يشغل بالكِ؟» هززتُ كَتِفَيَّ ودفعتُ، بقوة، وجهي في عنقه. لا، لن أقولَ لهُ إننا كنا بصدد الافتراق في هذا الحلم. خلال النهار، كانت كمّاشاتُ الوعي تُلَوْلِبُ كلَّ الكوابيس النائمة وجَذَامير أخرى للقلق.

هناك

في الشفق، تسلّقْتُ الكَثيبَ. كان عالياً، عالياً إلى حدّ أنني لم أعرِفْ كيف قمت بهذا. يبدأ العِرْق[9]. إنها ذروة الصحراء. أزرعُ رِجْلَيَّ العاريتين في الرمل الذي كان ما يزال مُحرِقاً، وأرفع عَيْنَيَّ نحو القِمَم. إنها تتمدد وتلامس السماء، وتطويها وتُكَوِّرُها مِثْل سَجّاد. لو أنها تستطيعُ تنظيمها وقضْمَها! وجعلها تتبلّل في قليل من البول. تُخربِش فيها ثلاثَ سحابات. فقط ما يُكدِّرُ قليلاً من شراهتها!

أَتَسَلَّقُ وأنا أُجْهِدُ نفسي. يَتَمَلَّكُنِي الانطباعُ بأنّني حشرةٌ هزيلةٌ منطَلِقةٌ لاقتحام الحنايا وحلْمات الكُوسموس. تنفُخ في وجهي وتشوِّه نظري وتُجفِّفُ منخارَيَّ ورِئَتَيَّ وتصفق طبلاً أصمّ في رأسي. أزفر. العَرَقُ يتَقَطَّرُ ويتَسَبَّب في التصاق الرُّمُوش ويُلصِقُ ثوبي. كان جِلْدي يَغرق في الماء والجفاف داخِلَهُ. كان هذا يدوم طويلاً إلى درجة أنني نسيتُ مَنْ مِنَّا ارتقى الآخَرَ، أنَا أَمْ الرمل. أُحِسُّ بالدوّار. إنها اللحظة الوحيدة من حيوية جَسَدي، وأمّا باقي الوقت فَأَظلُّ

(9) عِرْق: الصحارى الحوضية التي تنتشر فيها الكثبان الرملية.

منكمشةً على كِتاب. اندفاعُ الحبّ يُجَنِّنُني ويقلقني، يدفعني ويجذبُني بطريقة لا تُقَاوَمُ.

وأخيراً أرتقي إلى القمة، أنسَحِق منبطحةً، أُحَاوِلُ أنْ أستعيدَ نَفَسِي، أَنْزَرِعُ كَشَوْك البعير في الرمال، وأنتهي بأنْ أكْتَشِفَ هذا الحُلم الذي يسحرني: فكَثيبي هو الجفاف المنحوت بوفرة. بِلَذَّة. هذا هو الأمر. والتهتّك السامي لِجَسد الصحارى الحوضية في الخلف، هذا هو. قُدرَةُ اللّه. سخريةٌ من دوغما الأراضي المُحِيطَة، ولِمَظْهَر الصحارى الحوضية المقروضة بالغثّ بِصُخورِهَا التي أنهكَتْهَا الشمسُ والرياحُ. واللامتناهي المنغلق على سجن الأشغال الشاقّة.

أَلْتَصِقُ بهذا الكثيب، الذي يدعى البرغة. إنه السريرُ حيث تقفز أحلامي. من هذا المَجْثَم تنطلق أسفاري السرنمية اللامُتَحَرِّكَة التي تخلط ما بين كَلِمَات جدّتي وكَلِمَات قراءاتي. هُوَّةُ الصحارى الحوضية، في الأسفل، تحبسني في سجنٍ ضيّق. في الأسفل، تَسودُ الكوابيسُ. في الأسفل أَلْتَصِقُ بالكُتُب كي لا أموتَ من الغُصّة خلال الأربعة أشهر التي تَتَخَلّى فيها عنّي حتّى المدرسةُ.

من هذا المكان الشاهق، حينَ تَخْلُصِي من دَوْختي، لَدَيَّ متّسَعٌ من الوقت للإشراف على منزلي، على البئر وعلى الحديقة الموجودَة بالقرب منها. لديَّ علاقةٌ مُعَقَّدَةٌ مع هذه البئر. البناءُ الصغير الذي يَضُمُّ المِضَخّات مُحاطٌ بِصِهريج كاكيّ مرفوع على قَوَاعِدَ صَدِئَة، وهو نوعٌ من زائدة هائلة، مُنْغَرِزَة في رَسْم المَشْهَد. أَمْقُتُ هذا البُعْد عن القَريَة الّتِي تمنحنا هذه الحياة المنعزلة. أَجْهَلُ لِحِساب مَنْ تُلْعَب الدُّعابة التي حَوَّلَت أبي إلى حارسِ بئرٍ في الصحراء، وهو مُتَرَحّل الهضاب العليا، والرّاعي وطفل العَطَش الذي قضى قِسْماً من حياته

في البحث عن مساحات الرعي لحيواناته، وفي اللهاث خلف بِرْكَةٍ عابرة، وسرابات. أتميَّزُ غضباً من عَدَم استطاعتي، أبداً، مُغادَرَة هذا المكان من أجل استشفاف بعض القصائد أو بهاء هذا المَسَار. مِنْ حدّ إلى آخَر، عالَمُ الفوارق الكبرى، كنتُ أَعْرِفُ عنهُ البلايا وانقطاع التنفّس. هذه البئرُ هي مكانُ كلّ عطشي.

المحكيات المُتَرَحِّلَةُ، رحيلُها، وُصولُها، بحثُهَا عن الماء، الاشتغال على الصوف، وقَوَافِلُ المِلْح والأقمشة القُطنِيَّة والشاي... لم تَكُن جدّتي تنتهي من غربلة ذاكرتها المترحّلة لي. ولكنها عرفتْ كلَّ هذا قبل أن تَجِدَ نَفسَهَا مُسَمَّرَةً إلى حياة الاستقرار. أمّا أنا فقد فتحتُ عينيَّ وأنا مربوطةٌ، مثل عنزة، إلى دعائم صهريج صدئة. ومن حُسن الحظّ فإنّ بهاء الكثيب ملأ عينَيَّ. ومن حسن الحظّ أن بعض الرُّحَل كانوا يأتون، أحياناً، من جانب كثيبي ليوضّحوا، بصفةٍ محسوسة، هذا الماضي. ولكن بالرغم من أنني كنتُ أُشاهِدُ، بصفة حقيقيّة، رحيلهُمْ ووُصُولَهُم، فقد كان ينقُصُنِي ما هو أساسيٌّ: السَّفَرُ والعبورُ. إنه نداءٌ يَكْبُرُ في حياتي. وهذا النداءُ كان أحياناً من الحِدَّة بِحَيثُ إنَّنِي لَمْ أَكُن أرى شيئاً بالرغم من أنَّ عينَيَّ كانتا مفتوحَتَيْن تماماً. أَنْهَمِكُ بشراهة في قصص ومحكيات جدّتي، وفي الكُتُب. أَتَصَارَعُ من اختراع فضاءَاتِهَا ومَسَاراتِهَا. يَظَلُّ التّخييلُ واقعي الوحيدَ. فخلف الأُفُق لا يُوجَدُ أيُّ شيء. فراغٌ لا يمكن تصوُّرُه. وحدَهَا حِدَّةُ النَّظَرات وثبات الكلمات ما يجعلُ الهواءَ قابلاً للاستنشاق بالنسبة لي. مُنحَنَيَاتُ الكثيب الوافرة والبضّة تَحُلُّ مَحلَّ الصُّدُور التي لا أَستطيعُ أن أُكَوِّرَ وجهي ولا مَخَاوفي من دونها.

عبر أيّ مَقْلَب كلّ هذا الماء، الماءُ الذي ما يزال نائماً تحت الأرض في أقصى مِمصّات المِضَخّات، هل هو مثل الماء الذي يسخنُ في هذا الخزّان الرَّدِيء، يتباهى بالصدأ، ولا يُغَذّي سوى خُضَار حديقتنا؟ حدائق الفرنسيين تفيضُ أزهاراً. أما أنا فهذا المشهدُ الرائعُ لا أستطيعُ أنْ أتأمّلَهُ إلاّ مِنْ فوق الأسوار. وَالِدَايَ يقولان بأنه غيرُ مُجْدٍ الاهتمام بشيء غير نافع. ومن شدّة رَصْد وانتظار سِحْر الأزهار، اكتشفتُ من بينها نثاراتٍ في مزرعتنا. على بعض أوعية البُقُول. أحياناً على النعناع وعلى الكُزبَرة. لمسات صغيرة جدّاً بيضاء سريعة الزوال. وحده الزعفران يعزّيني ويَحْمِلُ لونَهُ الخالد والأوحد، حتى النّهاية وحتى الجَنْي، يملأُ يَدَيَّ وعينَيَّ ومنخريَّ. فترة طويلة بعد التّذكار.

شيئاً فشيئاً، سَيَتَسبَّبُ بحثي عن مَظَاهِر جمال زهيد سَأُكَافَأُ عنه بِكُنوزٍ مُنبثِقَةٍ من جوف الرمال. كل أنواع الباقات الصغيرة الهشّة- وحتى الزَّنْبق- الذي يُسرِعُ في التَفتُّح، ويُعانِدُ في تَعْطير من يعرفُ أنه مُهدَّدٌ، بسرعة، وبأنّ خطراً آنياً يُلاحِقُهُ. أستَنْشِقُ رَحيقَهُ فأُحسُّ بالانتشاء. هذا الشّذى وهذا اللّونُ الحادُّ الموضوعان على تُوَيْجَة نحيلة، إحدى رَوَائِع الغطرسة في مملكة الجماد، هذه. أجلس على جَنبٍ، منذهلة من السّعادة. لقد بدأتُ ألتَقِطُ الأشياء عديمة الجدوى. هذه الزيادةُ عن اللُّزُوم أصبحت عندي ضروريّةً.

مُنْبَطِحَةٌ، بِشَكلٍ دائم، يَتّجِه نَظَري نحو القرية. خارج «القصر» و«الملاّح» اللذين يَتَدَاخَلاَن، تَظَلّ باقي الأحياء مفصولة بِحَواجِز. الشَّوَارِعُ الفَرَنسيّةُ مُتأنِّقةٌ بشكل واضح، ومَنْزُوعَة الرَّمل ونظيفة. بين

هذه الشوارع من جهة وبين البَلْدات العربية واليهودية مجتمعةً من جهة أخرى تُوجَد مجموعُ المباني الإدارية: مَكَاتِب شركة الفَحْم الحجريّ والدَّرَك والمستشفى ومدرسة الفَتَيَات ومدرسة الفتيان، والبلدية. وهو تحديداً فضاءُ التقاء وتَعَايُش تَجِدُ عتبةُ التَّسَامُح نَفْسَها فيه خفيضةً جِدّا كي لا نقول إنه من المتعذّر عُبُورُها. وراءَ كلّ هذا، في سَقْطَة الزُّرْقة السريعة يَتَمَدد بستانُ نخل حوله بساتينُ فَوَاكِه. وبعيداً، صَخَب «الصبخة» la sebkha، البِرْكَة المالِحَة، التي لَمْ تحتَفِظْ في كلّ ذكرياتها عن الماء سوى بتصدُّعات في دِرْعِهَا السّاطع.

بين هذا العالَم وخزّان المياه يتَشَقَّقُ طَرِيقٌ، طريقٌ كنتُ أَسْلكُهُ من أجل التوجه إلى المدرسة. إذا ما شُوهِدَ من عَلِ، فإنه يُؤَشِّرُ بِشكلٍ أفضلَ على هذا الفَصْد الأبيض بين عالَمَيْن مُنفَصِلَيْن... هناكَ في الغرب، هناكَ حيث يَشْمُل الشَّفَقُ في نفس الشهيق الصّامِت الأبكم «القصر» والكثيب، أعرفُ أنه توجد هناك مَقْبَرة «للاّ عايشة». بمحاذاة أسوار ذات سُمْرَة بنفسجيّة أرجوانيّة إلى تَوَرُّمَات الكثيب الأمعر الأُولَى، تلتصقُ القبورُ، وتَتَغَضّنُ وَتَخْلطُ ما بين مُدَرّجات من تُرابٍ ورَمْل وترسم درجات. يأتي الأطفالُ والنِّسَاءُ للجُلوس فيها. يَلتَحِقُ بهم مُتسوِّلُو «القصر». فتبسط النساءُ الطعامَ الذي حملنه كَقُربان. فيتناول كلّ هذا العالَم الطعام معاً. ومقابل الضريح الصغير «للوَلِيّة عايشة»، توجد جَنْبَةٌ مُعلَّقَةٌ مُزَيَّنَة بِتَمائم وبقايا أشياء ثمينة ومناديل وأَخْرِمَة وخِرَق من كل نوع، تُشبِهُ سَاحِرَةً قديمةً، والشبح الوحيد لِمَسرح النائمين بين الأحياء والكثيب. تنظر الناسُ إلى هذا. ترفع العيون نحو الكثيب وتَبْتَسِمُ.

الرِّمَال أقلّ حرارة. أعضاء جسدي المرتخية ثقيلةُ الوزن. أُحِسُّنِي جَسَدَ الكثيب. نُشَكِّلُ معاً جَسَداً واحداً. تغمرني نشوةٌ سُرْعَانَ مَا تُضيّق عليّ الخِنَاق. انحلّت أحشائي، اليأس الذي كان، لحد الآن، مطموراً، أَمْسَكَ بِخِناقِي. أَحْشُرُ وَجْهي في الرمل، أبكي في صمتٍ وأَنَامُ. لا أنام إلاّ قليلا. أرفع رأسي بعد دقائق قليلة، أَفْرِكُ جبهتي وَجَفْنَيَّ وَوِجْنَتَيَّ، وأسقطُ دُمُوعي في الرَّمْل. القليلُ من النوم الذي يهجُمُ على إهمالي في كَتَف الكثيب يُلْبِسُنِي ثياباً جديدة، ويمنحني انطباعاً بالامتلاء. الكثيبُ هو السّرير الذي آتِي إليه من أجل أن أجمعَ، من هنا وهناك، بقايا المستحيل.

بَريقُ الغروب اختفى. غرقت السماءُ في ظلام المساء. أَنْزِلُ من جديد، هادئةً، متفكِّكَة شيئاً مَا، ولكني مُسْتَعِدَّةٌ لمواجهة حياة الأسفل والأَرَق.

هنا

مَجَلاّت السفر تَتَرَاكَمُ على طاولة غرفة النوم. تَرمس ماء موضوعةٌ على مقربة، ورأس السرير مرفوعٌ. أتردد في الاختيار بين هذه المجلات وبين عددين من مجلة «الطبيب المتمرس» مُكَرَّسَيْن للنوم. انتهى بيّ الأمر إلى أن أطفئ الضوء تحت وَسائدي، متكئةً عليها، مفتونةً، قبل كلّ شيء، برؤية الحديقة في ليلة كان البدر فيها مكتملاً. لم أغلق الشبابيك الخارجية كي يتسنى لي التمتّع بهذا المَشْهَد. الوَمَضات البيضاء تُضيءُ الغرفةَ والسرير. شجرة اللوز المُزْهِرة الموجودة بالقرب من الكوة الصغيرة للشقة تبدو كأنها بلورتْ حزمة شرر، دافِعةً إلى الظلّ النخلة المُجاورة. القِسم الأعلى من النّخلة يُشَكِّل سديماً ساطعاً يعُجُّ بترصيعات بنية اللون وليلكيّة على أغصان الكُوبَلْت. أشجار النَّخيل الموجودة في الجانب الآخَر تبدو وكأنَّهَا أيدٍ كبيرة محكوم عليها بالعذاب تمتد نحو هذا البهاء المُتَوَّج بهالة.

العينان تُتابِعان بتفصيل ساحر هالة الشمس، أُفكر في مقالات عن النوم التي قرأتُهَا في ساعات متأخرة من الليل، البارحة. وفيها يقوم كُتّابُها بِتَشبيه مع ارتجاجات الجَنين، هذه الحالة الزلزالية التي

تُحِسّ بها الأمُّ بِالنوم المُوهِم بالتناقض. باحثون آخَرون يرون بأن هذه الارتجاجات الصغيرة جداً التي يمكنها أن تكون الاندفاعات الأولى في نظام مجهول يَرْبط، عبر النوم المُوهِم بالتناقض، كلَّ فردٍ مع نفسه ومع جنسه، الجنس البشري، في نظام يُبرْمِجُ التصرفات المُسَجَّلَة في الجينوم من قبل تاريخ الأسلاف بالنسبة للفرد. أنْ يستطيع النوم المُوهِم بالتناقض أن يُصلِحَ ما بين الكائنات وبين نفسِهَا، لا بأس. ولكنّي، أنا الطبيبة السريريّة، أَمْنَحُ كثيراً من الأهمية للإرادة وللاستيقاظ المتوثِّب، والدفاعيّ والخلاّق، تحديداً. إنّ الكائنات تُوَضّح جِنْسَهَا، بالشكل الأفضل، في بذل المجهود أكثر مما تحققه في الهجران... ولكن إذا كانت مِنْ فكرة لم أتقبلها أبداً فهي أن تكون التصرّفات مُبَرْمَجَة بنفس طريقة الأمراض الوراثية! إنّ تقدُّمَ علم الوراثة يمنَحُ أجنحةً للأطروحات الحتمية. بل يمكن حتى الوصول إلى اكتشاف جينة مُشْتَرَكة بين كلّ القتلة.

أُثبِّتُ قدميَّ في السرير، أملأُ عينيَّ بِمَجد شجرة اللوز، كي أضعَ حدّاً لِشَتْم هذه النظريات التي تنفي قدرةَ الكائن البشري على التخلص من مَآسٍ ومن غيتوَات.

عينايَ مسلَّطتان، دائماً، على حديقتي، أعودُ إلى الهواجس التي تسكنني منذ الصباح: كيف يمكنني قضاء الصيف بدون مركب شراعيّ؟ فقد تمدّدت النهارات. وهذا النهارُ الربيعيُّ قَوّى من رغباتي في البَحر. أعرف بأني سأفتقد القارِبَ بشكل رهيب.

منذ سبع عشرة سنة، وأنا أقضي كل صيف في البحر. في كورسيكا، سردينيا، إيطاليا، إسبانيا، صقلية، تونس، اليونان، تركيا... عِلاوةً على أننا في القارب، وبمجرد أن تختفي اليابسة في

الأفق، نُحِسّ بأننا في نهاية العالَم. هذا ما أعشقه. الوصول بسرعة إلى نهاية العالَم. التَعَبُ وهمومُ الحياة سرعان ما تُطفئها وفرة البحر. في نهاية العُبور ليس لدينا هاجِس العثور على فندق، نَنَامُ في مِرساة في خليج صغير. في الصباح، ألقي بنفسي في الماء وعيناي ما زَالَ النومُ يُدغْدِغُهُما، أتناول فطوري على غناء الزّيز، في مواجهة بانوراما الأرض البائرة والحرجية. الكتابة عن الصّحراء على سرير البحر... كل سنوات التَرَحُّل البحري هذه ثَبَّتَتْنِي في اكتشاف البحر المتوسط الذي أعتبره بحري الشخصي. والآن أعرفُ هذا البحر بشكل عميق.. أنا محتاجةٌ إلى اكتشافات وإلى زيارة أقطار قَصِيَّة جداً. سأذهبُ، هذا الصيف، إلى «سريلانكا» وإلى «المالديف». ثمّ أعودُ إلى عادتي، إلى التَوَاجُدُ وحيدةً في مجهول له ما يُشبِهُ الدّوخة. إحساسٌ يجعلُ دوخةً معتادة تصعَدُ فيّ. في نهاية الأسبوع المقبل، سأذهب لشراء أدِلّة للسفر وتهيئة هذا الرحلة. هذه الفكرة المنظورة تسحَرُنِي.

مُسَلَّمَات المجلات الطبيّة تعودُ لتَصدِمَ في رأسي الكليشيهات التي تُقارِن ما بين النوم في قارب وسعادة الجنين في سُخْدِه. لم أُصَدِّقْ أبداً هذه الفكرة عن رفاهية الجنين. بلْ يبدو لي أن هذه الفكرة من أكثر الأفكار إثارةً للشبهة بِكُلّ ما تَحملُه من روائح (كريهة) للأخلاق. كيف يمكن أن نُقارِبَ ما بين الحرية القُصْوى التي أُحِسُّهَا في القارب وما بين حالة التبعيّة الكلية للجنين؟ إنّ اندماج الجنين المثاليّ مع أُمِّهِ ليس إلاّ عُضوياً. أما الإحساسُ فلا يوجد فيه إلاّ حالَة البذرة -فيما يخصّ الجنينُ فالأمر طبيعيّ.- أيّ

بهاء يمكن أن نمنَحَهُ للإحساس بدون التعلّق بالموضوع وبدون الموشور وتشبيح العقل؟

هناك، كثيراً ما سمعتُ نساء حوامل وهنّ يتأوّهْنَ ويَتَرَجّين اللهَ أن تحمل الأجنّة التي يَحْمِلْنَهَا أعضاء جنسية ذكورية - وهنّ يَدْلَكْن بُطونَهُنَّ، وعيونهنّ محلّقة بسبب تضرُّعِهِنَّ. أقولُ لنفسي، الآنَ، بأنه كان يوجد ما يُوصِلُ هذا القلقَ للأَجِنَّة، لكل الأجنة، بغضّ النظر عن جنسها، على افتراض أنها ما زالت لا تمتلك الوعي، في هذا المقام. في هذه الشروط، ما الذي ستُحِسُّ به الرضيعات وهنّ يتقابلن مع وُجوه الوأد والدفن التي تَستَقْبِلُ صَرْخَتَهُنّ الأولى؟ فضلاً عما سيحملُهُ هذا التذكار التدشيني، إذا كان مِنْ وُجودٍ لهذا التذكار. وعلى كلّ حال فإنّ أصوات اللواتي حَضَرْن أثناء الولادة، من الأمّ والجَدّة الخالات والعَمّات سيأخذن على عاتقهنّ، لاحِقاً، بأن يُكَرِّرْن لتلك الفتيّات، باستمرار، صَدَماتِهِنَّ مع أنفسهنَّ من أجل أن يُدْخِلْنَ في رؤوسهنَّ الشعور بالضعف والدونية. سمعتُ هذا الهمس المُسْتَسْلِم وهو يحكي لي، مرات عديدة، عن خيبة وِلادَتِي. لاحِقاً حضرتُ كثيراً من المحكيات والمَشَاهِدِ التي تُهَذِّبُ مخَالِبَ فتيات أُخْرَيَات. هذه الترنيمة القديمة لأصواتٍ نسائيّة هي التي تسكنُني. هذه الترنيمة تُصدِرُ مثل هذه التضحية التي تَنْتَصِبُ كَواجبٍ مُطْلَق ومُمَسْرَح. إن النساءَ يدفعن، بشكل يوميّ، مثل هذا الثمن للحياة ولانسجام عائلاتهنّ ولِقَبيلَتِهِنَّ. وهو ما يُغَيِّر من شكل معاداتهنّ، ويجعلهنَّ خَطِرَاتٍ في نظري. أنا أعرفُ رُدُودَ فعلي للإهانات والشتائم الذكورية التلقائية والأقلّ تعذيباً، لأنها كانت شتائمَ، تحديداً. ولم يكن فيها هذا الكمّ من التَّنَازُلات التي تستطيعُ أن تُدَمِّرَ

عَبْر الشعور بالعجز الذي تُوَلِّدُهُ أو تُطَوِّعُه، والذي تستطيع، بِمَكرٍ، أن تُعِدَّهُ للاستسلام عبر هذا الابتزاز العاطفي الفظيع للأمهات: إذا لم تفعلي مثلي، فأنت تُنْكِرينَنِي وتقتلينني!

يَعود إلى ذاكرتي كل ما اعتبرته، دائماً، دورةَ قُوّةٍ استثنائية، وأنطلق في ضحكة مدوّية. كم من نساءٍ وجدنَ أنفُسَهُنَّ حاملاتٍ، والزوج إما غائبٌ وإمّا ميتٌ، وإحصاء الشهور ليس بإمكانه أن يمنحهُ الأبوّةَ، صَرَّحْنَ، مع ذلك، بِلاَ حياء بأن الجنينَ - الذي صُوِّرَ، بالتأكيد، في زمن الزوج، وكم يمكنه أن ينشأ من دون هذا المشوار؟- نامَ زمناً طويلاً في بطونهنّ! قبل أن يتفضّلَ ذات يوم فيستيقظُ ويُواصِلُ نُمُوَّهُ. لقد اعتبرتُ دائماً مضحكةً أسطورةُ هذه الأَجِنَّة التي تستطيع أن تُوقِفَ نُمُوَّهَا شهوراً بل سنوات ثم تُعاوِد النموّ حسب إرادة نَزَوَاتِهَا. المُعجزةُ تتمثل في عدم وُجود من يُشَكِّك في هذه القدرة غريبة الأطوار لبعض الأَجِنَّة في فَرْط الأرَق. قرونٌ من الأجنة النائمة ضَمِنَت البقاء. تَشَاءُ دِقَّة الفكر أن تكونَ الصَّدْمَةُ التي يُثيرها الرحيلُ أو موت الأب-أحيانا صدمة من نفس المدى - هي التي تُوقِفُ التطوُّرَ العادي للحمل. كلُّ اللواتي كنّ خائفات واللواتي كنّ يَخْشَيْنَ أن يَقَعْنَ، ذات يوم، في شَرَكِ الإغواء. واللواتي كانت الرغبة في كائن آخَر تُعذبهنَّ، كنَّ يُسرِعْن في التأكيد، بمجرَّد الغياب المؤقت أو النهائيّ للزوج، بأن طفلاً نام في أحشائهنّ. يا لها من خدعة جميلة! ولكن بماذا يمكن أن نفسّر كونَهُنَّ استطعْنَ أن يحتشدن كلّ الرِّضَى في بلدان يأخُذُ فيها الارتياب في الخطأ مكانَ حُسْن النيّة والحفاظ على الشرف؟ من تكون هذه

الشَّهْرَزاد الأخرى التي كانت خلف هذه الخرافة التي يَتَوَاصَلُ تَدَاوُلُها، بلا رَوِيّة، والتي تُواصِلُ إنقاذَ حياة العديد من الأمهات ومن الأبناء؟ إنّ هذه النساء يُظْهِرْنَ عطفاً ومحبة خَاصَّتَين نحو هؤلاء الأطفال، الذين يدعونهم بالنائمين. وهي تسمية أقلّ إيذاءً، بكلّ تأكيد، من تسمية اللقطاء.

حينما كنتُ صغيرةً كنتُ أقول بأن الطفل النائم يأتي، بكل تأكيد، من سرير واقف. وأنا أيضاً، بالتأكيد، كنتُ سأنام بشكل أفضل، لو كنتُ وُلِدْتُ من خلال أرابيسك سرير راقِص.

وجهان أو ثلاثة وجوه لِسَيِّدات الغفوة هذه، تَفْرِضُ نفسَهَا على ذاكرتي. أستَمتِعُ باستعادة مختلف قَسمات قِنَاع الكرامة الذي يستطيع بسرعة كبرى تثبيط عزيمة كلّ تَهَجُّم، وأغْفو في سكينة دون أن أفتح كتاباً. يَجِبُ أن نعترف أنّ هذه سلطة تلك الشيطانات، اللواتي أنَمْنَ أجيالاً من الحَرَس المُسَمَّرين بفضيلتهم وجَمَّدْنَ على لسانهم سُمَّ نساء أُخْرَيَات- وهذا الإنجاز الأخير يرقى إلى ما هو مُقَدَّس- تصل إلى درجة بحيث إنها تستطيع أن تُمَارَسَ ولو من بعيد وفي ليلةٍ، قَمَرُها في اكتمال.

هناك

عرفناه حالاً. هذه المرة لا يتعلق الأمر بريح رملية. ريح الرمل تثقب الأفق وتتَقَدَّمُ في حُمْرة مُنْتَشِرَة، في ضباب من الغبار. الإعصارُ، هو الآخَر انبَثَقَ من أعالي السماء عَبْر انتفاخات عملاقة، سوداء، يزيد الشفقُ من اشتعالها. يبدو أنّ الأزرقَ انتهى به الأمرُ بالتحطُّم والتكسّر بِسَبَبِ عُنْف هذا الإعصار، والذي يَنْتَشِرُ في فيضٍ من الدم، ويتأهّبُ لِتَجْليط السّماء على الأرض.

لم تُمْطر السماءُ منذ أكثر من أربع سنوات.

أَطْبَقَ، في البداية، صَمْتٌ مؤثِّر. مثل بُهْرٍ فضائيّ. تَوَقَّفَ الكلُّ في شوارع المدينة، الرؤوسُ مرفوعةٌ. النساء خرجن في الساحات، صامتات. وُجُوهُهُنَّ وأجسادُهُنَّ وأعصابُهُنّ تَتَمَدَّدُ. الكلُّ أصبح في أزمة أعصاب قِرمِزيّة تَتَدَلِعُ، أخيراً، في عواصف رعدية.

سقط الطوفانُ مع وصول الليل. دُرْنا وجُلْنا، لفترة طويلة، تحتَ الإعصار المائيّ قبل أن نُقَرِّرَ الدخول إلى بيوتنا.

بعد انتهاء ساعتين، كانت الأمطار تتهاطل داخل المنزل، تقريباً، بمقدار ما كانت تتهاطل في الخارج. المكان الوحيد الذي ظلّ ناشفاً هو المكان الذي شيَّدَتْه، من موادّ صلبة، شركةُ مناجم

الفحم الحجري في منقطة وهران، وهي الشَرِكة التي تُشَغِّلُ وَالِدِي. وهو يُوجَدُ بالقُرب من منزلنا وشَاغِرٌ، ولذلك فَنَحْنُ نَضَعُ فيه الماعز والغَنَم، مساءً، ساعةَ عودة الرّاعي.

نلتجئُ إليها مع عائلة أخرى قريبة. البالغون يهيجون ويضطربون ويُثْرثِرون. يتحدثون عن السيول التي تَتوالَد وتَكْبُر وتبدأُ في التَّسَاقُط كالشَلاَّلاَت. يرتجفون من فكرة أنّ المياه لن تتأخَّرَ في أن تغمُرَ الوديان وفي التَدَفُّق والانفجار والتَّلاَطُم. كَمْ من الرُحَل، الذين تتلَخَّصُ حياتهم في البحث عن الماء وفي الخوف من العطش، تَحْمِلُهُم ويَبْتَلِعُهُمْ هذا الجحيمُ السائل؟ المَطَرُ لا يتفضَّلُ بِمُلاَمَسَة هذا الجَمَاد إلاّ مِنْ أجل اجتياحِهِ. ما بين هذه السماء وهذه الأرض لا شيء يَحْصُلُ دون إفراط. ثُنائيّة قديمة العهد تُصِرُّ على تصفيح انتظارات البشر الأوليّة. حين لا تتسبَّب في إزهاق الحياة.

هذه الاعتبارات المُقلِقَة لا تُعطي الانطباع بأنّها أضَرَّتْ بِمَرَح أَحَدٍ. ربما ليس لها من هدف سوى المزج ما بين التوسُّل والرّعب من أجل زيادة الاغتباط. خَليطٌ من الأجساد نصف مستلقية على حصيرةٍ مُلْقَاة على فراش سميك من رَوْثِ الماعز والغنم، البالغون يَتَلَذّذون حين تُغَطّي زخّات قوية كلامَهُم المُتقَطّع. نِيَة قضاءِ الليل، ملتصقين بهذه الطريقة، ليس آخِرَ الملذّات.

الليلُ يَتَدَخْرَج، غَريباً، في الظلام. كلمات جدّتي أيضاً. في هذا المساء، استفادت الجدةُ من مستمعين كُثُر. من حظٍّ غير مُنْتَظَر للمناسبات. تحكي عن «طارغو» Targou، هذا الشَّبح لامرأة تسكن ليالي الصّحراء، مُتَخَفّية في مظهرِ رَجُل، وتبذل قُصارَى جُهودِهَا

لتَضليل الرُحَّل والمسافرين السَّاذَجِين من خلال التوسّع في تعليمات مغلوطة.

قبيل هذا بِعِدَّة أيام، في المدرسة، ساهمتْ مجموعةٌ من دروس الإملاء ومن دراسة النصوص، ومن القراءات والتفاسير من طرف المُدَرِّسَة في جَعْلي أتَنَاوَلُ مُؤَلَّفَات «إيزابيل إيبرهاردت». مُدرِّسَتي امرأةٌ استثنائيّةٌ... في كُلِّ الأقسام الأخرى، لم تَقُم القِرَاءَاتُ ولا الإمْلاَءَاتُ إلاّ في التحدُّثِ عن فرنسا. كنتُ فيما مضى قد سمعتُ، بِشَكلٍ غامِضٍ، عن هذه الرومية[10]، «إيزابيل». كَلِمَاتُها الخاصّةُ بها جسَّدَتْهَا بِسُرعة، وأضفتْ عليها شيئاً من اللغز ومن طابع مميز. كلمات من لغة أخرى تَصِفُ، ليس فقط، الصحراء، وإنما قريتي وبشكلٍ خاصٍّ كَثِيبِي. كلُّ هذا أصابَنِي بالذُّهُول. ثم هناك السيد «كروز»، رئيس مُقاوَلة الفحم الحجري في منطقة وهران، منحني كتاب «الأمير الصغير». الكتابُ حكايةٌ جميلةٌ. توجد في الكتاب فقرةٌ أثَارَتْنِي تتعَلَّقُ بِجُذور وأُصول الرُحل: «أين ذهب الرّجالُ؟»[11] يسأل الأمير الصغيرُ الزهرةَ الوحيدةَ التي التقاها أثناء عبوره للصحراء. «زهرة بثلاث تويجيات. زهرة تافهة. - لا نعرف، أبداً، أين يمكننا العثور عليها. الرِّيحُ تعبثُ بها. إنها تنقُصُها الجُذورُ، وهذا ما يُربِكُها بشكلٍ كبيرٍ.» تُجيبُ الزّهرةُ. انتفضتُ وأوشكتُ أن أُلْقِي بكتابي. أقنَعَتْنِي جدّتي دائماً بعكس هذا. «إننا لسنا نخلات كي نحتاج إلى جذور. نحن نمتلك سيقاناً كي نتمشّى ونمتلك ذاكرة

(10) تقصد المسيحية.

(11) راجع ترجمة رواية «الأمير الصغير»، التي قام بها المترجم[محمد المزديوي]، والصادرة عن دار الجمل، ثم عن «دار البراق» الباريسية في طبعة ثانية.

كبيرة جداً!» قلّبتُ جَوابَهَا مرتين أو ثلاثاً في هياجِ قُحْفي قبل أن أُواصلَ قراءتي برأفة. «مسكينة الزهرة. تنقُصُها بعضُ التويجات. الرّيحُ، من دون شكّ. ثمّ إنّ زهرةً في الصحراء...» غيرَ أنّه على الرغم من حفيظتي التي أضمرتُهَا تجاه سانت إكزوبيري، فإنّ تأمّلي للكواكب تعرَّضَ للاضطراب. ومن حينها، سَكَنَ النجم نَظَرُ وهذَيَانُ عفريته. أما أنا فقد كنتُ مسكونةً بالرغبة في أن أُصبح رائدة فضاء، وفي مُلاَمَسة الفضاءات. كنتُ مستلقيةً على الأرض، يَدَاي تحت عنقي، والقَلَقُ يُضايِقُني. بعد التحليق، أي فضاء يُمكنني أن أترَجَّاهُ أنا؟ ألاَ تُخاطِرُ السماءُ بأنْ تَهْوي على وجهي كَمَا الأغطية التي أَهْرُبُ منها؟ أثناء النهار، هذا ما أراه. السماءُ، أثناء النهار، ليست سوى غِطاء مصفوق على عَدَمِنَا. ظَلاَمُ الليل يُذَوِّبُهُ، يصقُلُ آلافاً مُؤَلَّفَة من الفوانيس ويفتحُ الكونَ على الخيال... وردّاً على كلّ جواب فإنه يبدو لي بأنّ دَرْبَ التبّانة يَتَمَدَّدُ ويَتَثَاءَبُ ويشخر في وجهي.

فيما يخصّ «إيزابيل»، فقد وصلتْ عَلى ظَهْر جَمَل بِمُحاذاة الكثيب. لم تأتِ من السماوات. لقد وصَلَتْ بعد أن عَبَرَت سهولاً حَصَوِيّة ورِمالاً بِكلماتٍ مثلَ كلماتِنَا. لقد بدا لي أنّ الصحراء تشبه رواية مكتوبةً من مَحكيات جدتي. هذه المُسافِرَةُ تثيرُ حيرتي ما دمتُ أنهمكُ في كثير من الأحيان في الحُلم بها. أحياناً يَصِلُ بِيَ الأمْرُ إلى تَصَوُّر لَمْح شَبَحِهَا في طَرَف أشجار النخيل. قرأتُ النَصَّ الذي كتبَتْهُ هنا، في «قنادسة». كتبتْ: «القصر» يبدو لي وكأنّهُ شُيِّدَ من أجل عَيْنَيَّ، أَعْشقُ فيه اللونَ... أجهلُ لماذا يبدو لي وكأن «القصر» عُمِلَ من أجل عينَيْهَا. أنا، بالأَحْرى، أَجِدُ لونَ الحيطان الأحمر والأسمر حزيناً. يَمِيلُ في بعض الأمكنة إلى البنفسجيّ الأرجوانيّ. بالإضافة

إلى ما كانت هذه المرأةُ تكتُبُهُ، فإنّ ما كان يَفْتِنُنِي، أيضاً، فيها هُوَ تنكُّرُها في ثوب رَجُلٍ وهو ما سَمَحَ لها اجتياب آفاق الصحراء.

ماتتْ «إيزابيل» غريقةً في سنة 1904، أثناءَ نومها، مِنْ جَرّاء فَيَضان وادي «عين صفرا»، على بعد مائتين وخمسين سنة شمالاً من هنا. كانت قد غادرتْ «قنادسة»، للتوّ، بعد إقامة عدة أشهر في «القصر».

مُمَدَّدَةً على الحصيرة ما بين صمت جدّتي، وهي مستسلمة لـ«طارغو» Targou، وهَدِير المياه، في سُبَاتٍ بصدد الاستيلاء على كل مَنْ كان في المجلس، فكرةٌ بدهِيَّةٌ استولتْ عليَّ فجأةً: «طارغو»، الشَّبَحُ الذي يُحَيِّرُ، هي إيزابيل! أن تكون أسطورةُ «طارغو» سابقةً لأسطورتي، فهذا لا أُخطِئُ فيه. هذا الشَّبَحُ ليس إلاّ بَدْلَة أُولَى، تَنَكُّراً مختلفاً من أجل صحراء أخرى للزمن. حيلة ليليّةٌ كي لا أنام وأموت؟ ثياب رثّة من أجل الأَرَق الذي هو البقاء على الحياة؟ ها هو التِرْياق، تحديداً، للرُّقى المُؤذِيَة المقترنة بثياب النوم والكَفَن.

أَجْلِسُ، يَنْخرُنِي هذا الكشف.

هنا

تَلَقَّيْتُ دعوةً. في الليل تأتيني كلمات الهُنَاك لتسْتَقِرَّ على سريري. سريري مَرْكَب «نوح» مِنْ أجل هؤلاء الناجين غير المُنْتَظَرِين. مِثْل طيور مُهاجِرَة، فإنهم يخترقون الصحراءَ والبحرَ والحروب والسنين والقطائع والخلافات، ويَصِلُون عندي مَسلوخين وخائري الأنفاس. ولكنهم يتَغَطْرسون من تأثري، ويستعيدون، بسرعة، تأثيرَهم وسطوَتَهُم ويَسْكُنُون سَهَرَ لَيَالِيَّ. إنَّ أَرَقِي معمول من أجل هذا. حتى من أجل إخراج الكواسر من مَكَامِنِهَا تحت تغريدات ساحِرَة.

كنتُ مَدعُوّةً. عثرتُ للتوّ على هذه الكلمة في كِتاب. من المَدْعُوَّةِ المُتَخَنْدِقَة في غرفة محظورة على الأبوين، أَنْتَقِلُ، بِشَكْلٍ غير محسوس، إلى دعوة الكاتب في بَلَدِهِ. أَضَعُ الكِتَابَ، وأترك نفسي تَسْتَسْلِمُ لهذا التذكار. حدث هذا في سنة 1990. كانت روايتي الأولى «الرجال الذين يمشون»، قد حصلتْ للتوّ على جائِزَة مِنْ طَرَف مُؤَسَّسَة[12] أدبية تشكلت في الجزائر. «نور الدين أبا» وهو

(12) مؤسسة نور الدين أبا.

رَجُلٌ عجوزٌ ذو صوت دافئ، هاتَفَنِي من الجزائر. حين أقفلتُ سمّاعة الهاتف انهمكتُ في البكاء، بالرّغم من أنني لا أبكي عادةً. فالاضطرارُ بِشَكلٍ مستمرّ إلى صَكِّ أسناني ثَبَّتَ غُدَدِي. إنّه دفاعٌ وحصارٌ. البكاءُ، في النضالات الفردية، يعني التخلّص من الذات. منح الذّات كَفَريسة. تَصَوَّرتُ عن نفسي صورة مغلوطة، يمكن اختزالها إلى صورة الضَّعف والاستسلام. دُمُوعي لا تَتَفَجَّرُ إلاّ من أجل تخليدِ انتصارٍ تمّ تحقيقُهُ بِسُوء نية. لذّة الشّقاء ما زالت تشكل جزءًا من عجزي. وهو عَجْزٌ يُكَيِّسُ عُقُوبةً لم يتمّ قضاؤُها. منذُ أن بدأتُ الكتابةَ وأنا أَمْنَحُ نفسي جسديّاً، لِكُلّ الانبثاقات، وأُحَاوِلُ أن أُصْلِحَ نفسي. الكلماتُ تَحْمِلُ، أحياناً، زَفِيرِي دون أن أُغشّي بصري. أَبْتَلِعُ رِيقِي مرات عديدة، ولا أَنْجَحُ في ترطيب الحنجرة. يُوجَد فقط هذا المَغَصُ الذي يضغط بِقُوّة على بَطْني ويَحُدُّ مِن نَفَسِي. مُشْكِلة مستعصية حتى على الكتابة. الكلماتُ لا تستطيعُ فِعْلَ شَيْءٍ ضِدَّ هذا الصّمت المدفون. ثم إنّ الدُّموعَ تجعلني دميمة جداً. بعضُ هذه الدموع كافِيَةٌ لِتَشْوِيهِي. جَفْنَاي يَصِيرَان مُتَوَرِّمَيْن بِشَكلٍ فظيعٍ. وهذا السبب راجِعٌ رُبَّمَا إلى حساسيتي من الدموع.

قُمتُ بإرسالِ كِتَابِي إلى الجزائر العاصمة عن تحدّ. ولكن دون أوهام كبيرة. لَمْ تَكُنْ لدَيَّ، أَبَداً، أيّةُ جاذبيّة - وأنا هنا أُلَطِّفُ من كلمة جاذبية- لا تجاه الجزائر العاصمة ولا تجاه شبابِهَا الذي يُفْتَرَضُ أنّه ميسورٌ ومَزْهُوّ. فقد فضّلتُ عليها دائماً مدينةَ وهران الآهِلَة بالسكان، هذه المدينة الساخرةُ والضاحِكَة وغير المُحْتَشِمَة. موسيقى «الرّاي»، التي تعرّضتْ لاحتقار طويل الأمد في الجزائر العاصمة، التي تَصْدَحُ من رصيف إلى آخَر، والتي تُخالِط سفلة الناس، وتنزع

وصلة الشوارع، حانات المُومِسات والشّجَارات، صبيان الأزقّة الذين يبحثون بعضهم عن بعض، شبيهات «دليلة» اللواتي وجدن بعضهنّ بعضاً، الزوايا في «كالونتينا» التي تُجبّصُ الحُنْجُرَة والنَّفَس... إنسانية هجينةٌ حيثُ البوهيميون والمعوزون يُحِسّون أنفُسَهُم غيرَ مطرودين. ينتابنا الانطباع بوجود عاصمةٍ للمحرومين وأخرى للمُلوك. وفيما يَخصني فقد أُطْلِقَ عليَّ لقبُ المَلِكَة. لا دَخْلَ لي في هذا القرار. إنّ إطلاقَ ألقابٍ جميلة على الفتيات كي يَنْخَرِطْن، بِشَكلٍ أفضلَ في حياةٍ تستعبدُهُنَّ وتحُطُّ من قدرِهِنَّ، انحِرَافٌ منتشرٌ جدّاً في البلد. إضافة إلى أنني أُحِسُّني ساحِرةً أكثرَ مما أُحِسُّنِي مَلِكَة، في طَرَف عَصَايَ بعض الكلمات الساحرة: لِمَ لا؟ ربّما!... بفضل هذه الكلمات فإنّ كلَّ شيءٍ يمكن أن يأتي أو يختفي بومضةٍ واحدة.

مجرد تحدّ، وها هي لجنةُ تحكيم، مُشَكَّلَةٌ تقريباً، بشكل حصريّ من الرّجال، تَهْتِفُ لي وتُنادِينِي. صوتُ هذا الدراماتورج والشاعر «نور الدين أبا» شَقَّ ثغرةً هامّةً في تَصَوُّرِي الضيّق عن العاصمة الذي ولَّدَهُ اليأسُ وأشكال الظلم وتنكيد بَلَد. أبكي وأنا أُمَرِّغُ أنفي في وسادتي وأظهر حقداً وغضباً كبيرين على نفسي وَاصِفَةً نفسي بالحَضَرِيّة البسيطة والطائشة، لكنْ من دُونِ أَثَرٍ يُذْكَرُ. في سريري، هذا المساء، بَلَدٌ بأكمله يحضنني.

«طاهر جاعوت» وأنا قمنا بِتَدشين قائمة الفائزين في مجموعة هؤلاء المثقفين المُعَبَّئين حَوْل هدفٍ وَاحِدٍ، وهو أنّ الكتب المُتَوَّجَة سواء كانت مكتوبةً باللغة العربية أو الفرنسية، فإنّ الجائزة تتلخص

تحديداً في ترجمتها إلى اللغة الأخرى. تكسير المانوية والمساهمة في الحدّ من التمزّق الاجتماعيّ الذي تسببت فيه سياسةُ الهويّة الواحدة والتاريخ الواحد. مشروع جميلٌ. كانت جبهة التحرير الوطني، في السّابق، هي التي تَمْنَح الجوائز. ووحدَهُم موظفو المؤسسة من كان يحْصُل على مِثل هذه الجوائز. وَاحِدةٌ من المسخرات التي تمتلك الجزائر وحدها سِرَّهَا.

لَمْ أَعُدْ إلى الجزائر منذ سنة 1977. غياب دام ثلاث عشرة سنة. الأسبابُ لا يمكن حصرُهَا: الأصوليةُ وقطيعتي مع عائلتي. فعائلتي لم تَقْبَل أبداً مغادرتي للجزائر. ولم تَقْبَل أن تراني أعيش مع رَجُلٍ فرنْسِيّ. حياتي التي تَوَزَّعَتْها دراساتُ الطِبِّ ومُمَارَسَة مهنتي. إن افتقاري إلى الميل نحو الجلد الذاتي للنَّفس خلال أوقات الفراغ. . . . ولكن صدمة أكتوبر 1988 أعطت الحياة للبلد وحَرَّكَت كثيراً من التطلعات ومن حُسن المبادرات. فبدأتُ أنا الأخرى أستَسلمُ للأَمَل.

قَدِمْتُ إلى فرنسا سنة 1977 من أجله، من أجل الرجل الذي افترقتُ عنه للتوّ. ولو أنّني لم ألتقيه، كنتُ سأذهب إلى كندا. في الجزائر، كان اختياري الأول من أجل هذه الصحراء البيضاء. أمّا فرنسا فقد بدتْ لي مُوغِلَة في القرب. قربٌ جغرافيٌّ، عَزَّزَهُ تاريخٌ مُشتَرَكٌ. لم تكن عندي أدنى رغبة في معاودة مشاهدة المظاهرات العنصرية، وتمزقات الحرب. قلت في نفسي، أيضاً، بأنّ التغرّب الكبير وَحْدَهُ من يستطيع أن يُهدِّئني ويُضمِّدَ جراحي. في هذا المرور تَلَقَّفَنِي هذا اللقاءُ. فأصبحتُ مدْعُوَّةً في بلد الحبّ. كانت هذه

الأرضُ، تحديداً، قد بَاشَرَت التودّد منذ طفولتي، هناك. فقد دَعَتْنِي، في البداية، إلى أمكنة خارج الكلمات، في لغة أخرى، في أحلام وَرَقِيّة، في حكاياتها الممنوعة. أيّ شيء طبيعيّ من غنيمة الحرب[13] المُتَراكِمَة ينتهي بها الأمر بِأَنْ تُشَيِّدَ لي قلعة صغيرة للحبّ؟

كنتُ قد غادرتُ الجزائر مفلسة تماماً. لم تكن تهمُّنِي إطلاقاً المِنَح الدراسيّة التي تُمَوِّلُ الدّراسات العليا في الخارج. فمن الأفضل لي أن أشتغل طبيبة ليلية وأَنْ أتقاضى مرتّباً غيرَ معلن. الأفضل ألاّ أَدِينَ بشيء لهذا البلد. لا شيء. كنتُ أعتقدُ أنني أكرهُهُ كما اعتقدتُ أنني أكره أُمّي.

قادني الحُبُّ، في فرنسا، في زَوْرق، على سرير البحر، في ضياء صحراء زرقاء. في كلّ صيف، كنت أُفضّلُ إخفاء الحنين باللازورد، تاركةً نفسي أَتَمَتَّعُ بِمَبَاهِج عبور البحر بَدَلَ أنْ أَتَحَمَّل أصواتاً حاقدةً مُغْرِقَة في الظّلام من كلّ الأنواع. ولكن أن أعود إلى بلدي وأحظى بهذا الاحتفال كَكَاتِبَة، فلم يَخْطُرْ لي على بال.

كانت كلّ الصحافة الفرانكفونية، على كثرتها، حاضرةً في هذه اللحظة، لحظة تسليم الجوائز في فندق «أليتي». وحتى مبعوثو صحف ناطقة باللغة العربية التقدمية كانوا حاضِرين. كانت مجموعة

(13) غنيمة الحرب: تعبير لكاتب ياسين بخصوص اللغة الفرنسية. (ملاحظة من الكاتبة).

من النساء الجامعيات حاضرات، وأصبحت بعضٌ منهنّ صديقات لي فيما بعد. وحْدَهَا التلفزة، الخاضعة لِنَيْر الدولة، قَاطَعْتْ هذه المُبَادَرَة. خلال عدة أيّام، كانت صُوَرُ «جاعوت» وصُوَرِي وبورتريهاتنا وأَحادِيثنا الصحافية كانت منشورة في كل الصُحُف، وغالباً في الصفحات الأولى. في نهاية الأسبوع كان الحدث قد أخذ أبعاداً هامة بحيث إنّ التلفزيون وَجَدَ نفسَهُ مضطَرّاً إلى أن يُقدِّم مُلَخَّصاً عنه. ولكني كنتُ قد التحقتُ بمدينة «مونبوليي». تمّ إرسال بعثة إلى الصحراء لتصوير وَالِدَيَّ. وكانت المعجزة أنّ والِدِي سمح لأُمّي أن تجيب عن سؤال أمام الكاميرا: «ما الذي تشعُرِينَ به إزاء تحول ابنتِكِ إلى كاتبة؟» رفعَتْ أُمّي ذِرَاعَيْها، وقالت بوجهٍ مُسْتَسْلم: «ماذا تريد أنْ أقولَ، يا بُنَيَّ، لقد كان دائماً ثَمَّة كِتَابٌ بيني وبين ابنتي. وحين كانت تنام، أخيراً، كانت تَضَعُ كِتَابَهَا مفْتُوحاً على وجهها!»

أَقْرَأُ في السّرير في بيتي في «مونبوليي». رنَّ الهاتِفُ مرات عديدة في المساء. أصدقاءُ من مدينة «وهران» بالإضافة إلى مدير المركز الثقافي الفرنسيّ في الجزائر العاصمة تتابعوا ليَتَحَدَّثُوا لي عن البرنامج التلفزي. لقد كان دائماً ثَمَّةَ كتابٌ بيني وبين ابنتي. إنها أجمل جُمْلة يَتَفَوَّهُ بها هذا الفمُ.

لم أذهب إلى الصحراء. ها لقد مرّت ثلاث عشرة سنة لم أَعُدْ فيها إلى بيتنا... حينما وضعتُ سَمَّاعَةَ الهاتف لم أمنع نفسي من التفكير في صاحب مكتبة «بشّار». هل يكونُ دائماً على قيد الحياة! خلال فترة مُراهَقَتِي، كان يحُثُّني: «خُذِي الكُتُب التي تُرِيدِينَهَا. فأنا أعرفُ أنَّكِ ستُعيدِينَهَا سالمةً. إنَّ حَاجَتَكِ إليها أكثر أهميّة من المال.

الله كبيرٌ!» بعد سنوات من مُغادَرَتي للجزائر، قَدِمَ هذا الشخص الكريم/الأريحيّ، وكان قد حصل على تقاعُدِهِ، في سيارة تاكسي إلى قريتنا لِيِسْأل والِدَيَّ: «ماذا فعل الله بتلك الفتاة الجميلة التي كانت تعشق الكُتُب؟ -إنها طبيبةٌ، متخصصة في علاج الكلى... هناكَ، في فرنسا...» أُفَكِّرُ فيه بِكَثير من العِرْفان بالجميل في لحْظة هذا الصَّدَى الذي تَرَكَه، في الجزائر، صدورُ روايتي الأُولى. أقول في نفسي: سَيَعْرِف أنني أصبحتُ، الآنَ، من جانبَيِ الكُتُب. وسَيَرى، عن حقّ، بأنه ساعدني في هذا المسار. أُحِسُّ بالفَخر لكوني لم أُخَيِّبْ ظَنَّهُ. مهنةُ الطبّ، الوجه الظّاهر لِلألَم، لم تكن إلاّ طريقاً مُحدَّداً ما بين القراءة والكتابة.

لَنْ تُتَرْجَمَ أعمالُ «جاعوت» ولا أعمالي إلى اللغة العربية. أَوّلُ ترجمة إلى هذه اللغة لكتابي «الرجال الذين يمشون» ستأتي بعد عشر سنوات، من بلد مجاور، المغرب(*). «طاهر جاعوت» تَمَّ اغتيالُهُ، بينما اضْطُرَّ أعضاء المُؤَسَّسَة الذين تَوَّجونا إلى اللجوء للمنفى، هم أيضاً.

الحبُّ ليس إلاّ حالة عُبُور وننتهي دائماً بأن نُطْرَدَ منها. لسنا سُعداء بالضرورة، كما يقول أحدُ كبار الأصدقاء الكُتّاب المُتشائِمين، جذلان. حين نعتقد أنّها قد طالتْ، فقَطْ لأنَّ التعوُّد ساعَدَها على النّوم. أو لأنه الواجبُ. وهو ليس بالشيء الأفضل على الإطلاق.

رعشات تطعن نومي، تُوقِظُنِي بعد فترة قصيرة. أفتحُ عينَيَّ في

(*) صدرت الرواية عن المركز الثقافي العربي، المغرب وبيروت.

الظلام، فَيَعْبُرُ ذهني قَتَلَةُ «طاهر جاعوت» و«عبد القادر علولة». صدري يضغط عليَّ. ولكني أَعِي بِشَكل مُبَكِّر بأنّ هذه الارتِعَاشَات من طبيعة أخرى، وهو أنني حصلتُ للتو على لَذَّة، وأنا نائمةٌ. هذه الرعشات لا تنطلي على أحد. فأعضاء جسدي أصابتها صدمات كهربائية. أُحَاوِلُ، عبثاً، استقصاء نفسي لأعثر من جديد على من كان صاحبي.

مُتراخيةً، أُدَاعِبُ بطني: «لا يوجد خَطَر. فلاَ أَحَد دخل في بيات شتويّ في الداخل.» إنّها فُقَّاعة من خفّة قابعة في ظَلام أفكاري. كل عَطَش لَيْلي. غريزةٌ تَرْفُضُ المصيبة كامتناع. غريزةٌ تَنْتَظِرُ أنْ يكونَ دِمَاغي خارجَ الحلبة كي تَمْنَحَنِي عشيقاً مُتَخيَّلاً. غريزة تلعب لي الجولة الحاسمة للأرق. أَظَلُّ حَالِمَةً خلال لحظة: «من هو عشيقُكِ؟ لا أملك أيّ فكرة. مَلاك؟ شيطان!»

هُنَاك

الرقم المتصاعد، دائماً، هذه المرّة، لأعضاء العائلة، لا علاقة له بالحوافز وراء توسيع المنزل. فانبثاق الاستقلال ومنظور احتمالات لا حَصر لها تَفْرِضُ زيادة مكان محتشم للاستقبال، بعيداً عن الخلية المنزلية. قاعة المدعُوّين تنفتح على بعد خطوتين من عتبة باحة المَنزل. إنَّها من أكبر الغرف في المنزل. كُنّا نُطلق عليها: قاعة الضيوف. لم نكن نَعْرِفُ من قبل كلمةَ «صالون». وفي غياب الضيوف كانت القاعة تظلّ مُغلقةً بِالمفتاح. لم تكن أُمّي تفتحُها إلاّ لكي تُنظِّفَهَا وتحرص على أن تكونَ جاهزةً لِكُلّ طارئ. سجّادٌ سميكٌ يغطي اسمنت الأرضية. المخمل الأحمر والأصهب والأسمر يُغلّف مخدّات المَقَاعِد التي تمتد على طول الحيطان، مانِحاً كثيراً من الأَسِرَّة الممكنة. بالإضافة إلى أن مساحة السجّاد تُضاعِفُ أيضاً من هذه الإمكانيات. مِخدّات من القماش نفسه تَتَكاملُ مع الرفاه المتواضع. طَبَق نحاسيٌّ كبيرٌ يتربع في وسط الغرفة. مثل هذا التنسيق نَجِدُه لدى كلّ العائلات التي تملك مثل هذا الرفاه. من البريق الزائف عِوَضاً عن البحبوحة. ولكنّي أُعْجِبتُ بهذا التَّرَف الذي يُذَكِّرُ بِتَصَوُّرِنَا عن السَّرير في الجَنَّة. في قراءاتي، أَثَارَتْ انتباهي

الأهمية التي تحظى بها مجموعة الأثاث والمفروشات في الغرب. وكعلامة على ماضينا كَرُحَّل ما زالوا راسِخين، فإنّ مفروشاتنا يمكن اختزالها إلى بعض الصناديق وطاولات خفيضة تُزيِّنُها مُنَمْنَمات. هل هُوَ ارتداد وراثيّ عند أُنَاس مَشَّائين؟ البَذَخ عندنا هو ما يلي: أكبر قدر من مساحة مُعَدَّةٍ من أجل وضعية مُمَدَّدَة، متراخية، في الليل كما في النهار، على السجاديد، على المقاعد مع أَقْمِشَةٍ لامعةٍ ومخدّات. الاستسلام لأحلام اليَقَظَة وللتَّهْويمات. إفراطٌ في الحساسية نجدها حتّى في الأقمشة والألوان. عبر أيّ تناقض تعبُرُه هذه الحضارة التي تُمَجِّد الجسد واللذّة، كي تدّعي تحريم الرغبة على النِّساء، صانعات وخليلات جَنَّات عدن، ومن أطباقها المطبوخة بِعُصَارة مُنعظَات.

وها نحن نمتلك، الآن، هذا المكان الجدير باستقبال الزُّوَّار. مع مجيء الاستقلال أصبح الناس يتنقلون بِسُهولة. أعضاءٌ من العائلة الذين يقطنون وجدة في المغرب، أو في الهضاب العليا، قَدِموا لرؤيتنا. وحين أقول إنهم قدموا لرؤيتنا، فهذا معناه أنهم ظَلُّوا عِندنا شهراً على الأقلّ. وقد حصل أحياناً أن كان عددُ الحاضرين يتجاوز الثلاثين فرداً. إنها مَنْمَلَة حقيقيّة. ولكن هذه المناسبات، على الأقلّ، لها فَضْلُ تكسير رتابة الأيّام الجَهَنَّمية.

في الأيام العادية، كُنّا نُواصِل تَكدُّسَنَا، نحن البالغين ستة عشر فرداً- الجدّة، الوالدان، الإخوة والأخوات، عمي وزوجته اللذان رُزِقَا بِوَلَد- في الغُرَف الثلاث. كما لو أنه من الضروريّ استثمار كلّ سنتمتر مُرَبَّع من أرضيّة المنزل. كما لو أنه تَوَجَّبَ تَوَفُّرُ الجِدَّة

البشريّة من أجل الإحساس بأننا أحياء. الفضاءُ الفارغُ، هو الخارجُ. هو الصحراءُ. هو الموتُ.

بعد غليان هذا الصيف، خلال الليل، مُغتَاظَة من فكرة هذه الغرفة التي لا يوجد فيها أحد- وبينما كنتُ، لحد الآن، أَفْرِضُ الضوءَ على كل وحدة كاملةٍ من نائِمِين مُتَحَالِفِين ضدّي عَبْر تَظَلُّمَات عادلة- أنهضُ من سريري وأذهب للاستيلاء على سرير القلعة كي أختلي بنفسي فيها. ليَاليَّ والأوقات الفارغة للقراءة وحتّى نومي تخضع لِتَحَوّلات بفضل تَخَلُّصِهَا من إكراهات ومن شعور بالذنب. في الأوقات التي لا تكون لي فيها دُروسٌ، أستطيعُ أن أقرأ طولَ الليل وأنا أستمع إلى الإذاعات الفرنسية وأَنَامُ في الصباح. فأفضلُ فَتَرات النَّوم تَأْتيني في الصّباح. وهو ما يجعلُ مقيتاً استيقاظي بالقرب من الآخَرين. بمجرد أن يصبح طعام الفطور جاهزاً حتى تقوم أُمّي بالنفخ في البوق. وفي غضون دقائق يَكونُ الكلُّ وَاقِفِين، باستثنائي أَنَا. أتكوَّرُ في سريري الحقير على أَمَل باطل في أن يَتِمَّ نسياني، وأنْ أستطيعَ أن أَسْرِقَ شيئاً من الزمن. ولكنّ أمي لا تمنحُنِي أيّ هُدنة. وبمجرد أن تَتَنَاوَلَ قَهْوَتَهَا حتّى تتصدّى للأعمال البيتيّة، فتقوم بِطَيّ كل الطبقات المُشَكِّلَة لأَسِرَّتِنَا، وتقوم بِجَمْعها. في بناءات عمودية معتمِدَة على الحائط، وتَغْسِلُ البَطَّانِيَّات المُلَطَّخَة بِالبُول وتَغسِلُ الحصائر بِالماء والحَلْفاء. وتَعرِضُ كلّ هذا لأَشِعَّة الشّمس، في الوقت الذي تُواصِلُ فيه غَسْلَ أرضية المنزل بفضل دِلاءٍ كبيرة من الماء.

لاحِقاً، حتّى قاعدة السرير، لم تنقذني من هذا الضجيج الصباحي. فَصَخَبُ الدلاء والصراخات المتكرّرة كانت عقوبةُ عدم

قدرتي على الاندماج في الراحة المشتَرَكة والمُصَنَّفَة. فَاضْطُرِرْتُ إلى النّهوض، جَفْنَاي ثَقيلان بسبب نقص النّوم وشدّة الحَفيظة.

استيلائي على هذه الغرفة أعطى الانطلاقة للحرب، التي ظلّتْ مستترةً إلى هذا اليوم، ما بين أُمّي وبيني. كانتْ كلَّ صباح تَدَعُ، بصفة عَرَضِيّة، أشغَالَهَا وتُطَبْلُ بِشَكَاسة أخلاق خلف الباب: «يا هذه! أيّتها الأمريكيّة! تُوجد أشغال بانتظارِكِ. قومي من نومِكِ!» أَتَقَلَّبُ على المقعد، وأنا أتلذذُ بِمُعارضتي للنظام الأمومي وأعجوبة الأعاجيب: وهو اختلاسُ بعض الإغفاءات بعيداً عن الصَّخَب وعن المُشَاجَرَات. القراءةُ طوال الليل والنومُ صباحاً والعيشُ بِمَعزل عن الآخَرين-على الطريقة الأمريكية- يَسْمَح لي أيضاً بالتخلّص من الأنشطة التي تَفْتَرس الأيامَ وتُرْعِبُنِي. الانقلاب التامّ للنَّوْم يُدَشِّنُ تَحَوُّلَ الرفض إلى مُقاوَمَة. يُرَسِّخُ من تصميمي على ألاّ أَدَعَ نفسي أَتَحَوّلُ إلى أَمَةٍ لإخوتي. فهم يقضون نهاراتهم في اللعب وفي السباحة. في المساء يستطيعون الذهاب إلى السينما. وعلى كلّ حال، فَهُمْ ليسوا فقط أحراراً، ولكنهم أيضاً مَحَلّ دلال وغنج ومُلاَطَفَة. أما أنا، فَلاَ حَقَّ لي في أيّ شيء من كل هذا. وما عليَّ إلاّ أن أَخْدُمَ وأن أُذْعِن وأن أَلُوذَ بالصمت. وإخراس الشقاء الذي تُسَببه لي كثيرٌ من التمييزات في الحنان. إنّ كبرياءَ الأطفال، هؤلاء الملوك الصِّغَار بِالقُوّة، إذا ما أضفنا إليها تَشَدُّد الآباء يُثِيران سَخَطي. أُفَضِّلُ أن أموتَ على ألاّ أقوم بأي مجهود خلال بعض التَّرتيبات. في هذه الفترة، فيما أعتقد، بدأتُ أَعِي النَّظرات العدائية التي تُلقيها أُمّي عليَّ، وباستمرارية لعناتها وغياب الكلمات الودودة والمُطَمْئِنَة. أَلَمْ تُوجَدْ أيّة استثناءات إزاء كلّ هذا؟ لقدْ فركتُ

الذكريات عَبَثاً، فلم أسمعْ إلاّ صلواتِ نُوَاحِهَا وأَوَامِرِهَا التي تَدُكُّ أَيّامي.

أَتَشَبَّعُ من الحرية الوحيدة التي توجد بمتناول يدي، وهي القراءة. أقرأُ طوالَ الوقت. أقرأُ بِنَهَم. من الآن فَصَاعِداً، يمكنني أن أمتلك كتب بِوفرة. لا أفهمُ كلَّ الكلمات التي أقرأُها، ولكني راضيةٌ عن هذه الوضعية. الكلمات المجهولةُ هي أكبرُ آثارِ هُروبي. هي تتركني في حِلٍّ من المعنى الذي تحظى به كتابتُها ورنّتُها، وتُسْكِرُني بِشَكلٍ أكثرَ. إنها تُمَثِّلُ كلَّ ما لا أعرفه عن التاريخ وعن الجغرافيا وعن البشر. إنّها تَنْحتُ خيالي بين الحاجة وإغْوَاءاتِها. أمّا اعتيادُ القواميس والأطالس الموضوعة على مقربة مني فَلَمْ تأتِ إلاّ بشكل متأخر. أتت هذه الحاجة بمقتضى امتلاك اللغة وضرورة تفكيك رنينها في أعماقي. أنا في هذه الساعة، لا أحتاج إلاّ إلى افتراس الفضاء وجوهر الكلمات. إنّ الكُتُب أصبحت، الآنَ، مؤونتي الوحيدة. لقد افْتَقَدْتُ شَهْوة الطَّعَام.

لمْ أُعِد مفتاح الغرفة الشهيرة، بِشَكل مُبَكّر. فقد كنتُ أَصْرُخُ وأُطْلِق ساقَيَّ للرّيح حين تُحَاوِل أُمّي انْتِزَاعَهُ منّي. كانت صرخاتي تكبَحُهَا وَتُكَزِّزُها رُعْباً. وباستثناء الزَّئِير كحيوانٍ جَريح تحت ضربات الموت، فإنّ الفتياتِ لا يصرُخْنَ أبداً، خصوصاً إذا كانت الصرخات عن تَمَرُّدٍ. فيما يَخُصُّنِي أنا فقد عرفتُ هذا، عرفتُ قُوَّةَ الصُّرَاخ. عرفتُ زِنَتَهُ من الفضيحة ومن المُحَرَّمَات. وفي حالة عدم الاستماع إليَّ وعدم فهمي، فإنّي أعتقدُ بأنّ الصراخَ قادرٌ على مُؤَازَرَتي. لقد قِست وَقْعَهُ في عينَي أُمّي، وأُعْجِبْتُ بِقُوَّتِهِ الدَّافِعَة. إنه يلويني في

مكاني وتضطرُّ أُمّي إلى أنْ تَتَرَاجَعَ وهي تهمسُ: «إنّ ابنتي مجنونةٌ!»

كان عليّ أن أَخُوضَ معركة بلا اسم وأن أستفيدَ من مؤازرة امرأة أجنبية، من فرنسية، وهي مديرة مدرستي، كي أستَطيعَ أن أجتازَ عَتَبَةَ ثانوية المدينة المجاورة. ففي اليوم الذي سَلَّمْتُ فيه إلى أبي مِلَفَّ القسم السادس للتوقيع عليه، كَوَّرَ أوراق الملفّ، وقذف بها إلى الجانب الآخر من الغرفة: «لا مَجَالَ أبداً للذهاب للدراسة في المدينة. لا يُمكِنُني أنْ أَقْبَلَ أن تقضي أيامِكِ بعيداً عن حِراسَتي!» كانت المديرةُ متيقظة إلى هذا الرفض، فجاءت لرؤية والدي لحظة اشتداد الحرب، وقالت الحقيقةَ كلَّها: «السيد محمد، أنا أعتقدُ بأنَّكَ مُقاوِمٌ كبيرٌ لأنَّكَ بَعثتَ بأولادكَ إلى المدرسة. وفي كل الأحوال، يُعْتَبَرُ هذا التصرُّفُ في نظَري فِعْلَ مُقَاوَمَةٍ أكثر من كلّ المقاومات الأكثر التزاماً والتي تستَهْدِفُ عَدُوّاً مُحَدَّداً. إن خوض صراع ضدّ مُواطنين صعبٌ جدّاً. أنا أيضاً من أنصار استقلال الجزائر. وسيأتي هذا الاستقلال. غداً. في بضعة أشهر... إنّه آتٍ لا محالة. حينَهَا سَتَبْدَأُ معركةٌ أخرى. المَعركةُ المُوَجَّهَة ضدّ العقليات الرّجعيّة، وضدّ الظلاميّة. وفيما يخصّكَ أنتَ، فقد بدأتَ هذه المعركة. لقد قمتَ بما لا يَعْتَبِرُه الآخَرون إلاّ مشروعاً بعيداً. وكي تكون الجزائرُ مُسْتَقِلَّةً، بشكل كامل، فإنه يَتَوَجَّبُ على البلد إيجاد مُدَرِّسِيه وأَطِبّائِهِ ومُهَنْدِسيه...» بدأت يدُ أَبي في الارتعاش، متسببة في زوبعة صغيرة في كأس شايِهِ التي كان يُمسِكُ بها وقال: «أَعِدُكِ أنّ مليكة ستواصل دراسَتَهَا. حتى ولو اقتضى الأمرُ أن تَذْهب إلى روسيا!»

الثانوية التي توجد في المدينة المجاورة، تعني فيما تعنيه قضاء يوم كامل بعيداً عن المنزل، بَعيداً عن العائلة. تحقيق حريتي. كنتُ

فتاة القرية الوحيدة التي تذهب إلى الثانوية. كنا أربع فتيات في الثانوية من كل المنطقة. الفتيات الثلاث تزوجن بوقت مبكر. ظللتُ وحيدةً ما بين خمسة وأربعين طفلاً. كان استثناءً يُوَضّح كَمْ كان هذا الإنجازُ هشّاً. هذا الاستثناءُ يُعطي كُلَّ مَقاسه لِطَابَعِهِ المُنْعِش. ولكنّ خَطَرَ الزواج يَظَلُّ قائماً. ولكنْ ينتابُني غَضب شديد يَحميني من السقوط في أيِّ شَرَك. وفي أسوأ الأحوال، أستطيعُ أن أهرب من المنزل في الليل. أتمشى بشكل مستقيم أمامي في الصحراء. الموتُ التهاماً من قبل بنات آوى أفضل من الموت عطشاً. هذه التوبيخاتُ تُلْهِب حماستي وتُساعِدُني على الصمود. أغتذي بالخيال لأَبْنِي نفسي، يومياً بَطَلَةً لأُسْطورتي الشخصية: «سأصبحُ رائدة فضاء أو طبيبة أو ربما كاتبة!» أحتاجُ كثيراً إلى التشبُّث بِحَمِيَّة وحماس بما هو صعبُ المُرْتَقَى كي لا أَسْقُطَ. أحتاج إلى أن أَحْلُمَ بأيّام قادمة قريبة وبآمال ومتمنيات كبيرة كي لا نخضع أبداً. الطريق الوَاجِبُ عبوره سحيقٌ. في انتظار الوصول إلى ما أريد، أنا أقوم بتخزين المعرفة من أجل إسناد تقدُّمِي.

فترةُ ما بعد الظهيرة تجذبني من فترة اعتزالي دون أن تجعلني أغوص في الحياة العائلية. حيثُمَا أَجلِسُ ينتفضُ كتابٌ أمام ناظِرَيَّ. تحاول جدتي أن تردني إلى عين الصواب: «لا تُتْعِبِي عينَيْكِ بكثرة القراءة. سينتهي بك الأمرُ إلى العمى!» أَشْكُرُها لأنها هدّأتْ من رَنّة الحديث كي لا تمنح أُمّي فرصةً للمُزايَدَة. أرفع عينيَّ عن كِتَابي وأبتسم في وجه جدتي، فَتَسْتعيدُ نظراتُنَا، بسرعة، تَوَاطُؤَهَا. وتنسى توبيخها.

في الليل، وأنا متمددة على أحد المقاعد، تسكنني، أحياناً، وُجُوهُ النساء المُتزَوِّجات، أُفَاجِئُهُنّ، هنا وهناك، وهنّ يتفحَّصْنَنِي بِعيون مُفتَرِسَة. كَبُر نَهْدايَ وبدأتُ أَكْتَشِفُ هيجان مداعباتي الشخصيّة، شعورٌ مُسْبَقٌ بالانتهاك.

إنّ هذا الانتصار الذي حققته وهو أن أكونَ، في نهاية المَطَاف، وحيدةً، ساعاتٍ وأيّاماً، كان حاسِماً بِحَيث إنه ضَاعَف كثيراً من فرحي بقدرِ مَا ضَاعَفَ من إصراري وعنادي. هكذا بدأتُ خُطايَ الأولى على طريق الحرية. يبقى عليَّ ألاّ أُقْتَلع منها. كنتُ مُتَمَتْرِسةً في قاعة الضيوف وأنا أُردّد القول باستمرار: «لا، لن أكون أبداً خادمةً. أنا المَدْعوَّةُ.» أَفْرِضُ نفسي كضيفة في عائلتي. بين أحضان ثقافةٍ شفهية، أعيش محصورةً في الكُتُب. الكُتُبُ تَظَلُّ ضُيُوفي الوحيدة. ذَهَبَ بِيَ الأمْرُ إلى إيجاد ثلاثة رفوف لها في قاعة الضيوف. إنها ثورتي الخاصة بي. العلامة على أنني أصبحتُ غريبةً عن أهلي. فها أنذا أنتبذُ نَهَاراتهم إضافة إلى لياليهم. الحياةُ على الهامش. الفكرة تراودني بقوة. وَوُعُودُها ليستْ خاليةً من كآبة.

هنا

أرى كلَّ شيء في عيادتي من الهموم الصغيرة إلى مظاهر الضيق والبؤس. لقد كنتُ أتصوّرُ أنني سأتركُ ضيق الاستعجال والخطر بِفَضل تخصصي هذا. كان ينتابني فَرَحٌ لكوني أستطيعُ أن أُكَرِّسَ نفسي لأوجاع الطبّ العامّ. أكتشفُ كَمْ هِيَ كثيرةٌ الكائناتُ التي لا تَحميها صحةُ أجسادها من مَخَاطِرَ لا تُدْرَكُ باللمس. أكتشف إلى أيّ حدّ يُمْكِنُ للهويات المتفسِّخَة وللمآسي وللأقدار أن تثقل التكهنَ الحيوي. وَهُوَ ما سوف يُشَكِّلُ نَصِيبي. إذاً فَعَلَيّ أن أَتَشَاجَرَ، هنا، مع خُلاَصَةٍ من المشاكل الجسدية والاجتماعية، ومن قسوة الحياة.

المرضى في غالبيتهم مغاربيون. يوجد بعض الأتراك والبرتغاليين والغَجَر والأفغان... ويضمّ الحيّ ضمن ما يضمه من الفرنسيين بعضَ المُهَمَّشين والفُقَراء والهامشيين.

يوماً بعد آخَر، أفحَصُ أَسِرَّةَ المُهاجِرين، هذه الأجساد الراحلة، كما أطلقتْ عليهم الشاعرةُ السوريّة، جارةُ عيادتي. يوجد من بينهم مَنْ حصل على شَرَاشِف، الأُبَّهَةَ الكاملة على الطريقة الغربية. أَكتَشِفُ أَسِرَّةً تُشبِهُ مُهُوداً بفضل تخريمات مُغرية وزرْكَشات أخرى. كل هذا علامة، دون شكّ، على ازدراءٍ ناجح في الحياة

هنا. أزورُ أَسِرَّةً حقيرةً ملقاة فِي أعماق الأكواخ القَذِرَة، في عُزْلات تُجَّار النَّوْم. حين أَعْبُرُ مَتَاهَات المَمَرّات الكريهة من أجل اكتشاف الرجال الذين يحترقون من الحُمّى والذين يبصقون دماً في عُفُونة الغُرَف الصغيرة الضيقة والتي ليست لها نَوَافِذُ، وَحِيدِينَ، بَعِيدِينَ عن عائلاتهم التي بقيتْ هناك، أُحِسُّ، أحياناً، بارتباكٍ من مجيئي إلى هنا في كامِل أناقتي. ولكنَّ النظرات المليئة بالشكر والامتنان تبعث فِيَّ السكينة. العيون تتحدث لي عن الحَمَاس الذي اختزله خجل تلك اللحظةِ إلى تَشَكُّراتٍ مُتَلَعْثِمَة. وحين سيستطيعون، لاَحِقاً، أن ينهضوا من أَسِرَّتِهِمْ وأن يَهْرُبُوا من قَبْوِهِمْ حيثُ جمَّدَهُم الأَلَمُ، يأتون إلى عيادتي بِتَمَايُل منحرف، وُجُوه أطفال صِغَار مُثِيرَةٌ جداً لِلشَّفَقَة، الرؤوس شائبة، الأجساد التي فكَّكَهَا الرّوماتيزم وإصابات العمل، يُناوِلُونَنِي بعض التمرات، إبريق شاي، طَبَقاً أو صينية، عَطِيّة وتَبَرُّعاً: «هذه العطية من أجل الإسعافات ومن أجل الشَّمْسِ التي حَمَلْتِها إلينا.» كلماتُ هؤلاء وتَقَاسِيم وُجُوهِهِم تُكَدِّرُ خَاطِري كثيراً. إنها أجملُ هدية أحصلُ عليها.

زياراتي إلى المرضى الذين يوجدون في أقصى دَرَجَات العزلة، في زوايا البؤس والاقتلاع، أصبحتْ استعجالي الشخصي. هذه الأَسِرَّةُ ليستْ أَسِرَّةً وَاقِفة. إنها مُكَسَّرَة وموضوعة في أقصى الأمكنة. وأخيراً عليّ ألاّ أُغَيِّرَ مِنْ رِهَاني، وألاّ أَسْقُط من محيطي حين أَتَحَدَّثُ إليهم، إنّها طريقتي في إعادة جزءٍ من الاحترام إلى هذه الكائنات المُحَطَّمَة خلال فترة معينة.

جَسدي الصغير، وشَعْر رأسي المَتَجَعِّدُ وحقيبتي هي التي تَسْمَحُ لِي بِالمرور، عَبْر القذارة والظَّلاَم وعَثَرَات الغيتوات، إلى هذه الأَسِرَّة

المهجورة وهذه النَظَرات النَّهِمَة. وبغضّ النظر عن حالة الفِرَاش، فأنا أجلس على طَرَفِه، أكتشفُ الجَسَدَ، أَفْحَصُهُ وأَلْمَسُهُ، أَتَنَاوَلُ يدَ المريض كي أَتحدّث إليه، وأُطَمْئِنَهُ. حين أنْصَرِفُ إلى حالي، وعلى الرغم من وَخْز الوضعية الحادّ، فإني أَشْعُرُ بسكينة غريبة. وشيئا فشيئاً، نجحتُ في الوصول إلى هذه الخلاصة المتفرّدة، وهي أنّهم، أي المرضى، هم الذين يُعالِجونَنِي كلّ يوم. هُم الذين يُؤَكِّدون لي بأنني وَاصَلْتُ دون أن أُنْكِرَ شيئاً، دون أن أُنْكِرَ حتّى الفقر. لقد أدخلوا في مِهْنَتي رؤيةً وبُعْداً مَغَارِبِيَيْن. وجعلوني أُعَبِّرُ عنهما بلُغَة الطفولة. إنّ الحَيَّ الذي يُقيمون فيه يَنْشُرُ، حولي، باستمرار، مَذَاقَاتِهِ وأَرِيجهُ العائلي. هذه الأشياء العائلية هي ما أبحثُ عنه.

ولكنّ المِنَّةَ الأكثر عمقاً تأتيني من نظراتهم. صرفتُ كثيراً من الوقت كي أعي بها وكي أَزِنَ قدرَتَهَا على الإصلاح وعلى التجديد والإحياء. العيون نفسها بدأتْ، هنا، في إعادة إصلاح وترميم ما خُرِّبَ هناكَ.

هذا لم يمنَعْنِي من أنْ أصدر ردّات فعل على عيوبهم وأن ينتابني، في كثير من الأحوال، غضبٌ مُذْهِلٌ ضدهم. لقد كانوا متعوِّدين على هذا. وهو دليلٌ على أنني التحقتُ بهم بصفة كلية.

في الفترة التي كنتُ فيها بالثانوية، وحين بدأَ خيارُ الطبّ يَفْرِضُ نفسَهُ عليّ، تخيلتُ نفسي، ولفترة طويلة، طبيبةً لِلرُّحَل. لم أتصَوَّرْ نفسي أذهبُ لعلاج سكّان المدينة! لن ألمسَ أجسادَ مَنْ كانتْ نَظَراتُهُمْ تشي عندي بكثير من العنف! حديثُ جدّتي المليء بالحنين وحياةُ عائلتي المنعزلةُ عند قدمِ أحد الكُثْبان، في مواجهة فضاءات

واسعة لم يَتِمَّ أبداً اختراقُهَا وتخطِّيهَا، المُرَاهَقَة الجريحة، وخيبة الأَمَل من الأحلام التي كان يُغذِّيهَا انتِظَارُ الاستقلال، أثارتْ فِيَّ وَهْمَ أن الحريَّةَ كانت توجد في نمط الحياة الذي تخلَّتْ عنه عائلتي، أي نمط حياة القوم الرُّحَل. كنتُ أتخيّلُ نفسي وأنا أتقدم بصعوبة خلال الصحارى الحوضية والسهول الحَصَويّة، وأنا أبلع صحاري وصحاري في سيارة كي أُقَدِّمَ الإسعافات لآخِرِ المتكلكلين في الخطيئة وكي أُلَقِّحَ أبناءَهُم.

بعيداً عن الصحراء، في جنوب آخَرَ، وفي مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسط، في مدينة «مونبوليي»، أصبحتُ طبيبةً لأُنَاسٍ رُحَّلٍ من زماني، المهاجرين.

كلُّ حياة هذه الأجساد الراحلة ليستْ إلاّ عُبُوراً بين هنا وهناكَ. أَوَائِلُ القادمين وهم يطوفون في مدن أجنبية، جِيلُ الصِّفْر، يُلامِسون الحيطان مثل أشباح كي لا يُلاَحِظَ الآخَرون وُجودَهُمْ ويبدأون ثرثراتهم الطويلة في مقهى كي يُؤَخِّرُوا اللحظة التي يتوجب عليهم فيها الالتحاقُ بِأَسِرَّتِهِمْ المنكوبة.

هناكَ

دخلتُ إلى قسم الثانوية. عشية العطلة الصيفية، استدعاني مُديرُ الثانوية كي يُعْلِنَ لي عن تَسميتي مُعلّمةً في المدرسة الداخليّة. لم يكن هناكَ من شخصٍ آخَرَ قَادِرٍ على تَحَمُّلِ هذا المَنْصِب. أمّا الحُرّاس (الناظر) فقد تمّ اختيارُهُمْ من فترة طويلة تحسُّباً لافتتاح المدرسة الداخلية. تمّ إعدادُ قاعة كبيرة تَسَعُ سبعة أَسِرَّة خاصة بالفتيات. ولكن لم يكن ثمة شكٌّ في أنّ هذه الأَسِرَّة لن تَجِد جميعاً من يستعملها في السنة الأولى. وهكذا مع اقتراب نهاية الدروس، قَدِمَ رَجُلاَن، أحدهُمَا من «تيميمون» التي تَبْعُدُ ستمائة كيلومتر في الصحراء والآخَرُ من «تندوف»، التي تبعد ألف كيلومتر، من أجل تسجيل ابنَتَيْهِمَا. وبِسُرعة تَمَّ استدعائي أسرَعَ مِمَّا كان مُتَوَقَّعاً.

في سنة 1962، في سنة استقلال الجزائر، لم يَقصِدْ مقاعِدَ المَدارِس الفرنسية إلاّ عشرة في المائة من الذين يتوجب عليهم الذهاب إلى المدرسة. ويُشَكِّلُ الذكورُ الأغلبية السّاحقة. المعجزةُ تَتَمَثَّلُ في أنني شَكَّلْتُ جُزءًا من هؤلاء المَحْظوظين. ولكنّ تأثيرَ القوانين المتعلِّقَة بالتدريس الإلزامي، في منتصف الستّينات، بدأ يُؤتي ثِمَارَهُ. هذه القوانين تنصّ على إلغاء التعويضات العائليّة كلّما

انسحَبَ مراهقون، ذكور أم إناث، من السِّلْك الدراسيّ قَبل سِنّ السادسة عشرة. بالإضافة إلى أنّ الدولة تمنح منحة دراسيّة لكلّ تلاميذ الثانوية مهما كان العائد الشهريّ لآبائهم، بحيثُ إنّ العائلات ليس لها ما تَصْرِفُهُ من أجل التحصيل الدراسيّ لأبنائهم. هذا ما جَعَل الجَزائر بعد ثلاثين سنة من استقلالها، تقومُ بتخريج فرنكوفونيين أكثر مِمَّا تَمَّ تخريجُهُ خلال ثلاثين سنة من الاستعمار! غير أنّ الجِنْسَ اللّطيف كان الخاسِرَ الأكبرَ. على الآباء أنْ يَتَحَمَّلُوا النَّقْد والتنصُّلَ والمواجهة الجَسُورة للتقاليد. إنهم يُعرِّضون بَنَاتِهِمْ للاستنكار والشجب، ولأقوال خسيسة ومَهِينَة في الشارع، هذا إذا لم يَصِلِ الأمرُ إلى حدّ رَجْم سِيقَانِهِنَّ بالحجارة لأنَّهُنَّ تَجَرَّأْنَ على دَغْسِ أَرَاضٍ كانت لحدّ الساعة محصورةً بالذُّكُور.

لا أملك غرفة بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. خِزانَات معدنيّة موضوعة جنباً إلى جَنْب، تُعَيِّنُ لي فضاءً مُحتَرَماً في رُكْنٍ من الغرفة. خِزانتان مُخَصَّصَتان لي تَنْفتحان من جهتي. على ظهر الخزانات الأخرى أَلْصَقتُ بوستراً كبيراً يُصوِّر مَشْهَداً للبحر. طلبتُ أن يُوضَعَ مصباحٌ بقرب سريري وطاولة للعمل، وحصلتُ عليهما في اليوم نفسه. وكانت عندي إمكانية أن أمتلك، لأول مرة، قاعة حَمّام، لي وحدي. فيما يخُصّ التلميذات الداخليّات، اللواتي سَيَصِلن غداً، فَمَا لهنّ سوى اقتسام المِرَشّات المُشْتَرَكَة. أمّا في المساء، فأنا موجودةٌ وَحدي. الحارسُ الليليّ الذي يتعقَّبُنِي يُغلِقُ بابَ الجناح الصغير من ورائي دون أن أُحِسَّ بأنني سجينةٌ. في الليل، ولحدّ الساعة، كان الأَرَقُ والكُتُبُ وغرفةُ الضيوف المسافةَ

الوحيدةَ بين عائلتي وبيني. إنها أوّل مرّة سأَسْهَرُ فيها وأنام على مَبْعُدة كيلومترات من العائلة. وإذا كنتُ وَاعِية بأنَّ هذا المَنْصِبَ وهذا المُرَتَّبَ يُشَكِّلاَن المرحلةَ الحاسِمَةَ فإنّني ما زِلْتُ أَجْهَلُ حَجْمَ التَغَيُّر القَادِم.

على الرغم من الوعد الذي قَطَعَهُ أبي على نفسه أمام مديرة المدرسة، فقد كادوا يُزَوِّجُونَنِي في بداية الصيف الأخير. ولم يجد أَحَدٌ من العائلة مُفيداً طلب رأيي أو حتى، فقط، إخباري بهذا المشروع الذي كان سَيَتِمّ بين لحظة وأخرى. لم أكتشف الأمرَ إلاّ مع وُصُول ما يُفْتَرَضُ أنها عائلة زوجي، إلى بيتنا، مُحَمَّلَةً بهدايا وخروف للاحتفال بإجراءات الخُطوبة. أخُ جَدَّتِي، الذي يعيشُ في أعالي السهوب، والذي لَمْ أَرَهُ منذ سَنَوات، ارتأى أنّني، ومُنذ سنّ الرابعة عشرة، قادرةٌ على تأسيس عائلة. ولم يَكُنْ في واردِهِ أن يتركني أُصبحُ عانساً. من سلطته، وهو شيخُ القبيلة، أن يَضَعَ حدّاً لِقُصُور وَالِدِي. ولهذا خاطبَ العائلة القادمة لِطَلَب يدي: «أَهِبُهَا لَكُمْ مع بِذْلَتِهَا».

اسْتَفدتُ من المُهلة التي تَرَكَهَا لي وَالِدَاي، اللذان كانا مشغولَيْن باستقبال ضيوف الرّحمن، تَسَلَّلْتُ من المنزل، ومن القرية. أطلقْتُ ساقَيَّ لِلرِّيح، والخوفُ يجتاحُنِي. لقد كانَ للفضيحةِ التي تَسَبَّبَ فيها هُرُوبي وقعٌ فوريٌّ. فَمَنْ هُوَ الذي سيَطْلُبُ يَدَ فتاة قادرة على الهرب، وعلى إلحاق العار بِرِجال قبيلتها؟ في اليوم التالي، أمسكت العائلةُ القادمةُ لطلب يدي بخروفِهَا الذي كان يثغو واقتفتْ طريقَ السُّهُوب. بعدها بدأت جدتي تُعامِلُنِي بِوَميضٍ من الإعجاب

السَّاخِر. أما أُمّي فقد غَرِقَتْ في حُرُودِهَا. وفيما يخصّ أبي فإنه لم يُوَجِّهْ لِيَ الكلامَ خلال فترة طويلة. ولكن لا شيء استطاعَ أن يُسيءَ إلى انتصاري. لاحقاً، وبعد عدة أَشْهُر، ستأتي فضيحةُ الفاتِح من نوفمبر لِتَتْويجِ صِيتِي كامرأة متمرِّدَة وفاسِدَة الأخلاق. وهكذا لن يتجرّأ أحدٌ، من الآن فصاعداً، على تزويجي من دون عِلْمي.

جالِسة على السرير، في هذا المساء الأول في داخلية البنات، أفكر في أشهر العطلة الصيفية الأربعة. أَرَقٌ طويلٌ أَحْرَقَتْهُ نارُ الصيف. ها هو خطرُ الزواج قد ابْتَعَدَ. مُعاوَدَة الدُّروس وساعاتُ المُدَاوَمَة سَتُجَدِّدُ بنية أيامي، وتُسْقِطُ قليلاً من نومي على الليل بدل أن تُسْقِطَهُ على الصّباح، والتخفيف من تَوَحُّشِي من خلال استغراقي في هذه الحياة الاجتماعية الوحيدة التي أنتمي إليها، ألاَ وهي هيئةُ التدريس. في قاعة الدراسة، سيكون لديَّ خمسة وأربعون ولداً والتلميذتان الداخليتان. أَعْرِفُ أنني سأكون مسجونةً مع الفتَاتَين كلَّ المساءات هنا. لا أَجهلُ أنني حارسةٌ خاضعةٌ لِحِرَاسةٍ مُشَدَّدَة. ولكنّي أَشْعُر بارتياح واسع من جراء عدم اضطراري إلى الدخول إلى بيتنا. فَكَّرْتُ مطوّلاً في هذه المسألة، هذه الليلة. لقد نَجَحْتُ في اقتلاع نفسي من الجسم العائلي. أنا أُمَثِّلُ هذا الاقتلاعَ. جُزَيْئَة، قِطْعة صغيرةٌ من الجلد بِنَقائص في كلّ الحواسّ. من الأجساد لا أعرف سوى العيوب والابتزاز والاختناق، وليس الحُبّ، باستثناء حبّ جَدَّتي. ولكنّ جدتي، كما هو شأني، احتمتْ خلف الكلمات. هي ناسكةٌ، امرأةٌ تَقِيَّةٌ ذاتُ كلمة مُتَسَكِّعة، شاعرةٌ. البحثُ عن الكلمات جعلها تَرْصُدُ وَقْعَهَا في

عُيُون الآخَرين. هي ترى فيها لهيبَ الأحلام، إنّها طريقَتُها في المُداعَبَة.

ثانويَّتُنَا التي ما زَالَتْ في طور البناء، في حيّ بعيد عن المدينة، والقريبة من الكثيب نفسه، «برغا»، والتي تُوجَد بالقرب من «قنادسة»، لا تضمّ سوى ثلاث بنايات موضوعة، دونما سياج، أَمَامَ الصحراء. ممدَّدَة على سريري وأنا أنظرُ إلى البوستر الذي يُمَثِّلُ البحرَ وشعورٌ ينتابني وكأنّي أُبْحِر في سفينة صوبَ وجهة بعيدة ولكنها ما زالتْ مجهولةً. ويأتيني تصوُّرٌ مُسْبَقٌ، بحماسٍ مُؤلِم قليلاً بأنه لنْ تَكُونَ ثَمَّةَ عودةٌ ممكنةٌ. شعورٌ مُسْبَقٌ بأنَّ الثمن سيكون بَاهِظاً.

هنا

إزاءَ الاعترافات الرهيبة، أحياناً، لِبَعض المرضى، أُفَكِّرُ في كثير من الأحيان، في هذا القلق الآخَر الذي انتابَ أصدقائي زمنَ افتتاح العيادة: «لا يوجد هنا، إلاّ الرجالُ! أَلَيْسَ من الأفضل لكِ أن تستقرّي في «لاباياد»؟» فـ«لاباياد» منطقةٌ سكنيّة ذات إيجارات مُخفَّضَة في غَرْب «مونبوليي». وهي أحد هذه المَهَاجِع التي تُوجَدُ في أطراف المُدُن. فهنا تقطُنُ عائلات المُهاجِرين. اخترتُ أن أَمْتَهِنَ التطبيب في منطقة «بلان كابان»، وهو حَيٌّ تجاريٌّ مُبْتَلٌّ بالبول ومُتَبَّلٌ ومُهْمَلٌ وملتَصِقٌ بِوَسط المدينة. إنه مركزُ العُزَّاب، هؤلاء العُمّال الذين يعيشون بِمُفْرَدِهِمْ في فرنسا. الذين يَتَرَدَّدون على مَتَاهَات تُجَّار التّوم. أكواخُ العزلة القذرةُ.

ولكنْ أن تكون امرأةً ليس عائقاً بالنسبة لطبيب العرب. فهل سيكون ميزةً؟ نعم، إذا استثنينا كُلَّ طابَع ماليّ. حينَ تلقيتُ اعترافاتِ مُقَنَّعَة لحالات عجزٍ جنسيّ من أفواهِ رِجَالٍ مُعَذَّبينَ، اعتقدتُ، في البداية، أَنَّهُم كَوَّنوا في أذهانهم مفهوماً لاَجِنْسِيّاً عن وَظيفتي. أعرف أنّ هذا ليسَ صحيحاً. انتهى بيَ الأمرُ إلى استنتاج أن التعبير عَمَّا لا يمكن الإقرار به هو من دون شكّ أسهلُ في لغته الأمّ وبأنّ التواءات